الحب في زمن الألم

رواية

محسن عبدالرحمن

ترجمة

سامي الحاج

وزارة الثقافة والشباب
المديرية العامة للصحافة والطباعة والنشر
مديرية النشر - أربيل

اسم الكتاب: الحب في زمن الألم

المؤلف: محسن عبدالرحمن

التصميم الداخلي: نەورۆز جەمال

الطبعة الاولى: مطبعة الثقافة – أربيل/٢٠١١

رقم الايداع في المديرية العامة للمكتبات العامة (١٠٩٩) لسنة ٢٠١١

حقوق الطبع محفوظة للوزارة الثقافة والشباب والناشر

اقرأ هذا الكتاب والكتب الوزارة الثقافة والشباب على هذا الموقع

www.kurdchap.com

١

ألقى تحية الختام ورفع كفيه الى السماء يتضرع . أكمل ابتهالاته وتسبيحاته، وبخروجه أقفل خادم المسجد باب المصلى بالمفتاح . في حديقة المسجد كان الشيوخ يعقدون جلستهم اليومية المعتادة، هذا هو عملهم كل يوم . اصحاب الاشغال يؤدون صلاتهم على عجل ويغادرون، لكن هؤلاء لا يصدقون متى تنتهي صلاة العصر حتى يجلسوا مع بعضهم على بساط الثيل الاخضر بين الورود وانواع الزهور وفي ظل شجرة التوت يتجاذبون أطراف الحديث، ومن ذكريات ايام الشباب وتحليل السياسات الدولية والاقتصاد مروراً بقضايا الحي والجيران.. حتى مشاكل الحموات والكنّات، ناهيك عن مواضيع الفوضى والتسيب والانحلال الذي وقع فيه ابناء الجيل الجديد.

- ما الذي دهاك يوم أمس صوفي عنتر؟ كنت مستاءاً جداً !... قال جانكير.

- ذهبت الى احدى الدكاكين، وجدت ان صاحبه هو عزيز ابن دَحو العريان، ونظراً للصداقة التي كانت تربطني بوالده في عهد (زاهر آغا البَرازي) فقد رحت أكلمه معاتباً وأنا مطمئن، في الحقيقة كانت صداقتنا اكثر من مجرد علاقة اخوّة، قلت له " لو

قال لي والدك يومها لنذهب يا عنتر ونقتل احدهم، لألتقطت بندقيتي وتبعته دون أن أسأله أو انتظر الجواب، لم أكن لأسأله من هو أو لماذا؟ الصداقة في زماننا كانت بهذا الشكل، لكن لو طلبت منك الآن، وانت نجار، ان تدق لي مسمارين في هذا اللوح لأستثقلتَ الامر " وما ان اكملت كلامي حتى استلمني صاحب الدكان الذي بعمر حفيدي.

- يا مسلم، كنت ستقتل انساناً لو قال لك والده دون ان تعرف حتى اسمه، أو لماذا؟ منذ ساعتين وانت تلقي على مسامعنا النصح والموعظة، الرحمة، المروءة، الضمير، العدالة والاخوة والسلام.. وفي النهاية كنت ستقتل انسانا لو طلب منك والده ذلك؟!

- عرفت كيف دخلت الدكان، لكني لم أعرف كيف خرجت منه!

- خرجت أم هربت؟

- ولكن هل علمتم ان بعض الحطابين قد عثروا يوم امس على جثة امرأة في الجبل؟

وقبل ان يكمل ما بدأه، قطع مجاوره حديثه...

- تستحق ذلك. فالـ..... التي تُقتل، ماذا سيكون السبب وراء ذلك سوى العهر؟

استلم صاحبه الحديث منه:

- سلمت يداه ذلك الذي اطلق الرصاص

قال اكثرهم فهماً وعلماً ، وهو يعتمر كوفية الحج الصفراء اللون ويطقطق احجار مسبحته:

- هيه.. هيه.. لقد خُلقن من ضلع أعوج، لا بد ان تكون عصا الرجل مسلطة دوماً على رقابهن، فما أن يرين الفرصة سانحة امامهن حتى يفعلن ذلك، لقد جاء في القرآن (إن كيدهن عظيم).
قال صاحب المسبحة ذات المائة حبة وحبة:
- الامور كلها اصبحت في يد النساء فكيف سنوفق في حياتنا؟ المدارس والمستشفيات واية دائرة او مكان تذهب اليه تجده ملآى بالنساء. ما نتعرض له هو خسف من السماء، فالله لا يرشق السهام! إنما إذا أراد أن يعاقب قوماً أكثرَ فيهم المفسدين، عندئذ يستحقون عذابه وعقابه فيسلط عليهم احد الظالمين.
قال درباز محو المعروف كمرتزق، ولاعته في يده على اهبة الاستعداد لحرق أي مكان يصل اليه، إن لم يكن قرية فبستان كروم أو ربما مخزن علف أو أي شئ آخر:
- نعم ستجد على الدوام اشخاصاً غيورين ويرفضون الظلم في هذه الامة.
هكذا، وبقدر ما كانت الحادثة فانهم زادوها عشرة امثالها وتحولت من حبة الى قبة كما يقال، واصبح البعض منهم شهوداً بان المرأة كانت عاهرة لا يُشق لها غبار.....
- ان سيطرة دول الكفر، والمجاعة والبلوى التي يتعرض لها هذا الشعب المؤمن هو عقاب الهي.
الصوفي (عَمو) الذي امضى حياته كلها هارباً متخفياً بين الجبال والبراري، خادماً للآغا وتابعاً له، جال في كل المنطقة من (زيبار) و (جولميرك) حتى (وان) و (حلب). خلال عشرين سنة لم يهنأ فيها لعشرين ليلة بالنوم في فراش نظيف او يتناول رغيف

خبز ساخن كبقية البشر، كل عمله كان لصوصية وقطعَ طرقٍ لصالح الآغا والنتيجة: القليل مما يُشبع البطن فقط.. فعل كل ذلك، فقط كي لا يخدم ثمانية عشر شهراً في الجيش. طوال حياته لم يؤد عملاً ينضح فيه جبينه الناصع عرقاً، قال الصوفي عمو بثقة راسخة:

- صدقت والله.. سيطرة الكفار علينا هذه، عقاب الهي.

وعندما يأتي احدهم الى المسجد بعد انقضاء صلاة الجماعة، طبعاً سيجد باب المصلى مغلقاً فيضطر الى اداء الصلاة في الباحة، وهكذا كان الشاب الذي اصطبغت ملابسه بمختلف الوان طلاء الدور يؤدي صلاته قرب مجلس الصوفية والمريدين وقد استمع عرضاً الى جانب من نقاشهم، انهى صلاته وبدأ يلبس حذاءه . التفت اليهم وتنهد بعمق وهو يهز رأسه . الجلسة الدائرية ذكرته بالطاولة المستديرة للمجلس الحربي الانكليزي في عهد (ريتشارد قلب الاسد)، قال مبتسماً:

- يا معشر المتصوفة والحجاج، أي حاكم أفضل، الكافر العادل أو المؤمن الظالم؟

- ماذاااااا؟ رد الجميع بذهول

- ايمان في ظل ا لقمع والانفال، او كفر في ظل حماية أربع من طائرات التحالف؟!

الانفال... عندما تُذكر هذه الكلمة، تخرس الالسن، تنكسر رؤوس الاقلام وتقفز الى الذهن صور القتل والتدمير، الحرق والنهب، انه يومٌ تم فيه تنويم ضمير الانسانية تحت ضغط المصالح ... يوم، لم يبق لله والدين والانسانية والاخلاق وكلِ الاشياء الجميلة مكانٌ فيه،

ونُسي كل الاولياء والصالحين، ذلك اليوم الذي توقف الزمن فيه، وللمرة الاولى مذ خلقت الشمس أُغلقت كل ابواب الخير وبالمقابل أُشرعت ابواب الجحيم السبعة على مصاريعها امام بشر لا يملكون بين ايديهم شيئاً يمكنهم المقاومة والدفاع به عن انفسهم، فأما أسرى ومن ثم زرعهم أحياء في رمال الصحراء أو محظوظين تمكنوا من الزحف على بطونهم والعبور على خطوط فاصلة وهمية .. لكي يقعوا تحت تهديد ووعيد الجندرمة والعسكر.

كان يشد رباط حذائه باصابعه، شعر بتيبس ساقيه، مثل ذلك اليوم.. استحالت ساقاه من تحت ركبتيه حديداً .. في كل خطوة يخطوها تغوص قدماه كالمهباش نصف شبر في الطين، استجمعت الارض كل قوتها المغناطيسية في الالف شبرٍ ما قبل الحدود، غاصت حبالُ شدِّ الحِمل في لحم كتفيه، ذكّره الحمل الاضافي فوق كتفيه برحلة الاسكندر الاكبر الاسطورية عندم ا حمل جده في سلة محصول القطن، غربت الشمس واشرقت ثم غربت مرة اخرى . سخّر قوته كلها في خدمة قدميه وفي فجر لفه الضباب ترك حِمله بلا تلقين بين شاخصتين تفصلان بين الحدود.

اكمل شد رباط حذائه، انسابت دمعة وسقطت على الحذاء، لوعة على الاب العجوز الذي تركه على الحدود بلا غُسلٍ وكفن وصلاةِ ميت، تذكّره وهو يقول له آخر كلماته في سكرات الموت الاخيرة:

- اتركني هنا، واعبر بزوجتك واختَيْك الحدود، فالذين يلاحقوننا قد رموا عِمامة الاسلام تحت أقدامهم، لو لم ننس مذابح وعار جلولاء ونهاوند وآمد وهمدان لما أصابنا الذي يصيبنا اليوم.

كان اختياراً في غاية الصعوبة، ان تختار بين حَفرِ شبرين في التراب او الاختين اللتين في ربيع عمريهما والزوجة التي لم تجف حناء العرس في كفيها بعد .. وفيما كانت العائلة تنهي صعود التلة أكمل هو رصف كومة حجارة على جثمان ابيه.

عند الخروج التفت الى الجماعة وقال (أموالهم حلال ونساؤهم جواري) واتجه صوب الباب .. احتدم النقاش في المجلس كحساء يغلي في قِدرٍ أوقدت تحته نار حامية.

انحدرت الشمس فوق ارض الله صوب الغروب وبدأ الصراع الازلي بين الظلام والنور، اخذ الفيئ يزحف رويداً رويداً فوق المدينة لترجح في النهاية كفة الغسق، شأنَ كل يوم.

اتخذ الحاج شاهين طريقه الى البيت بمساعدة عكازه المصنوع من خشب السدر فيما كان ابنه (آزاد) يتجه صوب مركز المدينة.

في صفرة الاصيل.. كان يتمشى في شارع حديقة الشهداء، توقف عند رابية تشرف على البساتين والرياض التي كانت تتمايل اغصان الاشجار فيها في ر قصة إلهية مع هبات النسيم المنحدرة من الوادي، عند افق البرية شكّل لون قرص الشمس والغيوم معاً لوحة سريالية.

جال ببصره في حديقة اتحاد الادباء الذين كانوا يعدون لأمسية شعرية، جلس على عقبيه وراح يحدث نفسه (هيه.. دنيا... مدينة دهوك وفيها من الشاعرات ما يكفي لأق امة امسية شعرية خاصة بهن!! آه، ليت شيوخ وملالي ما قبل ثلاثين عاماً ينظرون اليكم اليوم..!!)

نظر جهة مستشفى (آزادي) وحي (سي كركا). دقق النظر في شرق التلة الصغرى وكأنه يبحث عن دار بعينها .. انثالت ذكريات الحبيبة كجريان ماء زلال على قلبه الضامئ . استعاد شعوره، وضع نقطة في نهاية السطر على الورقة، وراح يقرأ الكلمات التي سطرها قلمه : حبيبتي.. غداً ستسافرين الى بلد غريب وبعيد، وحواليك سيتحلق الشباب والشيوخ .. حفلات واعراس، رقص ودبك، سيختلط الليل بالنهار، ستفقدين الاحساس بالوقت، وعندما لا يعود للوقت معنى لديك وتتوقف افـكارك، ستمر الايام والسنون بسرعة وذات ليلة بعد ان تتعبين من صخب حفلات المدينة الكبيرة ويسدل النوم غشاوته على عينيك الخضراوين ..ستطيرين في احلامك، تقطعين البحار وتحطين ضيفة في العش الذي بنيته انا لك وتشمين منه عبير الحياة، عندها لا تعودي ثانية، لا تندمي .. عندما تبتسمين يهدأ قلبي، ارجو ان تذكريني في منامك واكتبي لي رسالة وابعثيها، قولي فيها انك بخير لكي اتذكر عينيك عندما انظر الى خضرة الربيع هنا، واتذكر شلال شعرك الذهبي عندما ارى اشعة شمس الصباح والاصيل .. قلت لك حبيبتي، لا اريد حباً بالاكراه، انت لي كنرجسة جبل ية لو قطعوا عنك الماء سأرويك بدموعي، وان اقتلعوك من الارض زرعتك في قلبي.

جلس وحيداً في ذلك الطرف القصي، وكانت اسماء المشاركات في الامسية تتلى وهن يلقين قصائدهن تباعاً . فجأة تناهى الى سمعه اسم يعرفه، رفع رأسه، ليرى من اين ستنبثق قامة صاحبة ذلك الاسم، وعند ما وقفت خلف الميكرفون قبالة الحضور شهق بدهشة وهو يمد عنقه كالنعامة : شيرين، صديقة نسرين؟!

وبشفتين ذاويتين كوردة ضامئة خاصمتها الحمرة كانت تلقي القصيدة وهي تبعدهما عن الميكرفون مرة وتقربهما تارة اخرى وكأنها تنوي قضمه . نظرات بريئة خجلى تطغى على ملامح وجهها وعيونها تشع بأحزانِ امنيةٍ كبرى وأمل مشرق.
كانت الكلمات تخرج من فمها بايقاع متسق، كعقد انفرط وراحت حبات الدر تتساقط بهدوء، وكان المستمعون من مختلف الشرائح، الذين حضروا دعماً وتشجيعاً للمدنيّة قد ملأوا الحديقة، وهم ينظرون اليها بعيون جائعة. وفي الوقت الذي كانت اذنا آزاد تتلقى الكلمات، كانت عيناه قد جعلتا اديم وجهها كفنجانِ قارئة الحظ وانصهر فيه.
كان الحضور كالمتصوفة الذين يجلسون في الجامع يستمعون الى خطبة يوم الجمعة وهم يهزون روؤسهم ولا يفهمون منها شيئاً . والمجتمع الذي شرب من نبع الذكورة النرجسية حتى الثما لة نطق لسانه بما في عقله الباطن، قال الرجل الذي صبغ شعر رأسه وشاربيه بالاسود وبكرشه الذي افترش حضنه كحامل في أواخر ايام حملها، وهو يحدث مجاوره:
- حقاً ان الادب الانثوي.. أدب!!
بدت علامات الاستياء على آزاد، لكن المكان غير مناسب.
انفصم تفكيره من مركزه واتجه صوب اللاوجود اللامتناهي عندما ادرك ان لا أحد منهم يشعر بالكلمات، ماذا تعني وعن اية آلام وآمال وتطلعات تعبّر . الرجل يرى في المرأة انوثتها فقط .. غاب في ارخبيل الذاكرة.. في ارشيف سنوات المجاعة والبلوى، أحياناً تستحيل اعماقه زمهريراً وتارة يحرقها سعير الجحى م، يود لو ان

غضب السماء ورحمتها تجتمع مرة واحدة في عاصفة تقتلع الباروكات وتطيّرها ليكون لعمال البلدية يوماً للنظافة العامة.
كان ينظر الى شرين والقلم يتحرك بين اصابعه...
مجتمع مراهقين، يتجملون بماكياج المدنـيّة ويقفون على ارصفة الشوارع، يمتّعون ابصارهم بال نظر الى النساء، وعند الغروب يصطفون للصلاة، هنالك الكثير من الاحداث المؤلمة نُقشت في سجل يوميات هذه المدينـة، لكن هؤلاء فقدوا الذاكرة، تراجعوا عن الحنث العظيم والعهد المقدس الذي قطعوه على انفسهم، من الشتاء الى الربيع تغيّرت الحياة وغيرتنا معها .. نفس الوجوه وربطات العنق و.. تناهى الى اذنيه صوت خيالي (في مدينتا كل من وجد حواليه اربعة شقاوات فهو بطل، واذا قابل احد اصحاب الشأن انحنى ويده على صدره، اما اذا صادف امرأة فهو دون جوان) اية مدينة عجيبة، اهمية الانسان ومعياره في قيمة ملابسه وان كانت مستعارة!!
داوم القلم كتابته...
الانحراف في عصر مغترب ووجهة خيالية، يولّون وجوههم صوب المدينة الفاضلة . اديبة وسيدة مجتمع، في عجلة دائمة من اجل لقمة العيش، ابنة مدينتها، ولهذا فان سوء التغذية باد على محياها. لاول مرة منذ ان تفتّح الربيع انتشر داء الملوك وماكياج المدنـيّة.
وضع القلم نقطة وابتدأ سطراً جديداً...

يقدسون حياة المدن، يعيشون ليأكلوا . قذف لهم (الخابور) قنديل علاء الدين السحري والسماء منحتهم علم وحكمة زرادشت في ليلة شتائية.
حركة الشفاه، تماوجُ الشعر مع نسمات الهواء الناعمة، كلها غدت منظرَ بحرٍ غادره الهدوء . مضى الوقت سر يعاً، وبكلمة شكرٍ وموجة تصفيق عادت تخطو كالظبية، كل خطوة تمردٌ على الفوضى وقشور المدنية.
غربت شمس ذلك اليوم، كما تغرب الحقيقة في هذه المدينة قبل شروقها.. وقبل ان تستعيد توازنها النفسي وهدوءها وتنتظم دقات قلبها انهالت عليها التهاني البنفسجية المخادعة وعبا رات التشجيع، لم ينطل الامر عليها . ارتسمت على شفتيها ابتسامة باردة برودة النسمات المنسابة من الوادي. قشورُ الثقافة، أكوامُ نحلٍ التمت على افروديت، وهم يضعون ايديهم الرقيقة في كفها الكادحة الخشنة.
عجيبة هي المدنيّة ! قلبت أحوال الجنس البشري، فجعلت ايادي من خدم الشعب بنعومة قطن سهل (سلوبي). كانت شرين بينهم مثل ملكة النحل، الابتسامة وكلمات الشكر لا تغادر شفتيها، لكنها كانت تردد مع نفسها وبهدوء (ايها المساكين المهملين، اعناقكم الغليظة وكعب حذائي الرفيع، اتوسل الى عدالة السماء ان تبلوكم بسوء التغذية قبل ان تجف قطرات ندى الصباح على اوراق الورد وقبل ان يجتاح الصقيع اعماق ربيعِ مدنيّةِ مدينتي وتُجهض بخريف عشائري عقيم).
كان قد جذب اهتمامها، هو الجالس في الطرف القصي وهي بين الكومة، لاحظت عقدة ما بين حاجبيه سحابةً مثقلة تُمطر بنعومة

وأسى. دفعته هموم الحياة الى الانز واء بعيداً عن الكومة . وقفت قبالته، للمرة الاولى تشعر ان الانوثة المنسية في جسدها وحش ثائر، ولفترة طويلة لم تعد قادرة على رؤية الاحلام بمفردها . اقتربت، نهض لما رآها تهش ناحيته واستقبلها، وضع يده الخشنة في يدها، ادركت لتوها انها ليست الوحيدة في هذه المدينة ا لتى تمتلك كفين مخشوشنتين، أُسقط في يدها ولم تعد تملك خيار التفكير او العودة، وابتلّتِ الروح قبل الجسد .. مرت لحظات قبل ان تُقال او تسمع أية كلمة، والرسالة التي يعجز اللسان عن التعبير عنها بالكلمات، توصلها العيون بسهولة.

وفي تلك الليلة ستكتب شرين في دفتر مذكواتها:

محظوظون اولئك الذين يجتازون هذا الاختبار بنجاح، شعور مقدس في هُنيهة ذهبية، ان ينقطع الانسان عن كل شهوات الحياة ويعود بريئاً طاهراً كيوم ولدته امه، بلا حقد ولا حسد ولا كراهية، نبع ماء زلال بارد ينبع من بين صخور وادي (كلي علي بيك) يجري مختلطاً بالثلج في نوروز يتحول الى شلال ماء يسقط هادراً، وتحت وهج اشعة الشمس تستحيل قطرات الماء حبات الماس كنجيمات مشرقة في سديم سماءِ ليلةٍ صافية.

كانا قد إنقطعا كلية عن الحاضرين وهما جالسان تحت شجرة التوت الاحمر.

- عاشت يداك شيرين، لقد كانت قصيدة رائعة.

كانت تنظر اليه بعيني انثى قبج وتغرق في عينيه اللتين خبت فيهما حرارة واشراقة الحب واطمئنان النفس، حلقت افكارها عالياً

صوب قمم الجبال العالية والبحار الواسعة، كانت تسبح كالبجعة فوق السحاب، وفي غمرة التحليق نسيت ان تحط في مكان ما.
ردت عينا آزاد على الرسالة .. قبل ان نبلغ شاطئ الانسانية ينبغي ان نتطهر بملوحة مياه البحر من المحسوبية والرشوة والحقد والرياء، ان يكون معيار الانسان عمله وقدراته الشخصية فقط وليس اصله وعشيرته، فالحياة الاكثر استقامة واحتراماً وسعادة هي تلك التي نحياها في ظل العدالة.
- حزنتُ لمّا اخبرتني نسرين عن قصتك مع..... أعرف ان ذلك أمر يصعب نسيانه، وربما لا يمكن نسيانه قط . في الحقيقة كنت اسألها لماذا كتاباتك حزينة قاسية هكذا؟ ! ملآى بكلمات الهجران واللهفة، الشجن والشوق، انها تعبر عن حب كبير وعميق. هكذا قرأت كتاباتك وفهمتها واستطيع القول انني فهمت جانباً من شخصيتك...
قطع آزاد حديثها:
- مهلاً، مهلاً.. هل انت شاعرة ام محللة نفسية؟!
كانا يتمشيان قبالة الغاليري في ضوء مصابيح الشارع والسيارات...
- لقد حدثت ثورة ثقافية في كوردستان بعد الانتفاضة.
- هو كذلك يا شيرين، حقاً انها ثورة .. وبالرغم من انها ليست منظمة كما يجب، لكنها حالة تؤكد عطش الانسان الكوردي للحرية واستعداده النفسي للتغيير.
- المعنى..؟
- الحس القومي لدى الانسان الكوردي قوي، اما الوعي.. فلا

توقفت نسرين والتفتت اليه:
- كيف ذلك؟
اطرق آزاد يفكر وكأنه يبحث عن نموذج حي، قال:
- الاول من آيار، في اوروبا وبالرغم من التقدم الذي احرزته في مختلف مناحي الحياة فان العمال ينظمون التظاهرات، وفي الشرق يقيمون الاحتفالات، وفي مدينتنا دهوك يرقصون على انغام الطبل والزورنا امام مدخل البلدية، ألا يبعث كل ذلك على التساؤل؟!
- عفوا، ولكن لم افهم!
- الشعوب المتقدمة تستفيد من افكار ومقترحات مفكريها ومثقفيها، والشعوب المتخلفة مشغولة بالاسماء والمناصب والشعارات، ولو صرفوا تلك الاموال التي يبددونها على الصور والنصب والضيافات والدعاية لتجميل صورهم القبيحة، لو صرفوها بشكل صحيح من اجل تثقيف الجماهير ورفع مستوى المعيشة وتنظيم الدوائر والمؤسسات الادارية، لتقدموا، والعراق خير مثال على ذلك. فالاموال التي يتم صرفها على الصور والنصب التي نراها في مداخل كل المدن والقرى وعند رأس كل زقاق وشارع، لا يمكن حصرها. الكثير من كتّابنا وأدبائنا ما زالوا يقولون ويكتبون ما يخدم مصلحة شخص او فئة ما، ولم يتحرروا ب عد من ذلك الادب الذي يمتدح مقابل دينار ويهجو مقابل درهم .. القليل منا يرون في الكوردايَتي [1] التزاماً لهم، انها فرصة لنستفيد منها، ولكن الاكثرية يرون اننا نمر بمرحلة مخاض.
- النخالة تذروها الرياح والناعمُ من الحبوب ينزل من فتحات الغربال وتبقى الحنطة الحقيقية فقط، يجب علينا ان نتصدى لكل

محاولة للاجهاض حتى يأتي الوليد معافى وبأي ثمن . ففي كل مرحلة مخاض مر بها الكورد تعرضوا لمحاولات دائمة ومستمرة حتى أُجهضت، او في احسن الاحوال كان وليد المرحلة تلك ميتاً . هذه المرة.. لا.

- وهذا هو أملنا يا شيرين، لا ميت ولا مشلول، ولكن وليداً معافى، نتاج وثمرة هذه المرحلة من المخاض.

عند بوابة البنك ودعا بعضيهما، توجهت شيرين صوب بيتها وانحدر آزاد نحو جسر البلدية . كان يفكر في حبيبته دلبَر، تلك الفتاة التي أحبها من اعماق قلبه وبكل جوارحه، وكان يحلم بمستقبل مشرق وسعيد معها . كانا في نفس المستوى الاجتماعي والاقتصادي، حتى سنّيهما كانا متقاربين، كل ذلك الحب والاخلاص، كل تلك الامال والامنيات باعتها لشخص التقته مرة واحدة، كل عِلمه وأدبه، أصله وفصله، دينه وأخلاقه، جوازُ السفر الاجنبي الذي كان يحمله في جيبه .. قال في نفسه "اللعنة على الفقر"

وقف عند الجسر وراح ينظر الى كازينو (جناروك) الذي كان يعج برواده، تذكر مقولة احد الكتّاب (الطبقة الوسطى حلقة الربط في المجتمع وعندما تنصهر ينفرط العقد كله) ويبدأ الصراع بين الاغنياء والفقراء، الاول يشتري أي شئ يشير اليه باصبعه، حتى البشر، والثاني يبيع مضطراً. (الغنى الفاحش والفقر المدقع اسوأ صفتين في المجتمع).

كان الكازينو ممتلئ عن آخره، واكثر زبائنه كانوا من الموظفين، الشريحة الاكثر تضرراً من الحصار الاقتصادي وإنهيار قيمة

العملة المحلية، يقضون امسيتهم بلعب الدومينة او البوكر، وخلالها ينتقدون كل شئ ويمطرون حظهم السيئ باللعنات.
عندما وصل الى الطاولة كان الاستاذ عبدالجليل يوزع اوراق االلعب:
- بالله عليكم كيف يمكن بعد عشرين سنة من الدراسة وعشرة اعوام من الخدمة ان تكون كفالتي بنصف كفالة شرطيٍّ لم يحصل على شهادة الابتدائية وليس لديه خدمة عشرة اشهر؟ ! أيٌّ تقدير بقي للمعلم؟!
- حالنا كحال المرأة المسكينة التي لها نصف حظ الرجل في نصيبها من ميراث والدها والشهادة في المحاكم، ولها من عذاب القبر والجحيم مائة ضعف . لذلك ليس غريباً ان تكون مشقتنا عشرة اضعاف مشقة شرطي وراتبه ضعفي راتبنا وكذلك كفالته... قال الاستاذ صالح.
- الليلة البارحة اجتمع وزراء خارجية اخوتنا الاعداء وذلك للتباحث حول اوضاع كوردستان... قال سليمان وهو يحاول تغيير مجرى الحديث.
- نعم، نعم.. قل ذلك يا كريفي[٢]
- في اعتقادي، لو كنا على قدر المسؤولية فان كل مؤامراتهم ستذهب مع مياه دجلة... رد الاستاذ صالح.
- حقاً ما تقول والله، ولكن لو كنا نمتلك تلك العقلية لما ألبسوا سهلَ (سنجار) عباءةً عربية!
وضع آزاد مرفقه على الطاولة، حك جبينه وقال:

- صحيح.. مشكلتنا تتلخص في مفهوم (انا، وانت) هم كيف ينظرون الينا وكيف نراهم نحن، حتى الان كلمة (نحن) لا تعطي لدينا معنى (كورد) ومتى ما قلنا (نحن) وكان القصد منها نحن كأمة بكل قبائلها واديانها عندها فقط ستذهب اقوالهم عنا مع مياه دجلة، وإلا.....

كان الشد والجذب في احاديثهم كما هو في كل يوم لكنهم، وهذا هو المهم، كانوا متفقين على مبدأ واحد (الدين لله وكوردستان للجميع) وهذا المفهوم بحد ذاته تغيير جذري في تفكير الانسان الكوردى.

- آخ لأشباه الدول . امريكا والصين دولتان واليمن وموريتانيا والصومال دولٌ ايضاً!!! إليَّ بورقة يا عبدالجليل.

- في جزء من هذا العالم يصبح احدهم رئيساً ليخدم شعبه، وفي جزء آخر ليزين الشوارع وصفحات الجرائد بصوره، عقدة الشعور بالنقص!

- ليت الامر كان مجرد تزيين... ردَّ سليمان على دنخا.

- اعتقد ان قضية الشعب، فيما يتعلق بالرئيس تبدأ من الصورة، وهذه الحقيقة رأيتها بعيني . يومها لم تكن حرب وهزيمة، بل عار وفضيحة، كل اولئك الجنود البائسين تكوموا في البصرة، جياع ضامئين، ومع اول اطلاقة مدفع على جدارية للسيد الرئيس اندلعت شرارة الانتفاضة..

كان دنخا يهز رأسه اثناء ذلك.

- اعتقد، بدلاً عن صب اللعنات عليهم، من الافضل ان نصلح نحن احوالنا... قال سليمان.

- الحقد ليس نتاج اليوم او سنة، ثم ما ذنب المسيحيين والايزديين في هذه المعمعة؟
- صالح، لقد فقدنا أحترامنا لهم منذ زمن.
- صحيح، ليس لديهم فضيلة واحدة تشفع لهم، او امراً جيداً كي نقلدهم... قال آزاد.
- سلامٌ عليكم..
- سلام.. أوووه، هذا الاصفر ما كان ينقص السجادة [٣]، تفضل على صحن الطحينية، هل علمتَ أستاذ .. بعد ثلاثة اشهر منذ أن غاص (قادو) في نهر الخابور، قد خرج في (الراين)؟
- قادو!.. من هو؟.. تساءل الاستاذ هوشيار.
- قادو... ابن مستخدمنا، الذي طُرد من المدرسة ثم طَرده والده من البيت، ذهب الى بيت صهرهم، وهناك سرق حلي اخته واختفى . سألوا عنه هنا وهناك، واخيراً هاتف صهره من الخارج وقال له " سأعيد ا ليك مالك وفوقه هدية على جزمة عتيقة كما يقول المصريون"
- ولماذا انت مستاء عبدالجليل افندي؟
- ابو قادو .. عفواً أبو قادر بيك الآغا، هو مستخدم لدينا، وليس مستبعداً ان يأتي ذات يومٍ الى المدرسة بسيارة مارسيدس تنسلّ كافعى سوداء، عندها يتعين علي ان اقدم له الشاي بنفسي.
قال الاستاذ سليمان وهو يمسح نظارته الطبية بطرف ربطة عنقه:
- استاذ عبدالجليل، هل هذا وقتك انت وقادو؟ استاذ آزاد ماذا تمخض عن الاجتماع الاخير؟
التفت اليه آزاد:

- اجتماع مَن؟
- مَن؟.. اجتماع من غير مثلث اللعنة، بين قوسين اجتماع الاخوة الاعداء الثلاثة!
- عندما لا تجد النار ما تلتهمه فانها تأكل نفسها!

٢

انسحب للخلف وبدأ يقرأ في الكتاب الموضوع على الدوشك وهو يقول "اللهم زد وبارك في هذه النعمة " كانت والدته ترفع أواني العشاء، طحينية في صحن من الخزف وزبدة على هيئة قالب من صابون غسيل الم لابس، فيما كانت زوجة اخيه مشغولة بطفلها وهي تمد يدها بين الفينة والاخرى لتهز المهد.

مد آزاد قدمه الى المهد وبدأ يهزه وقال لزوجة اخيه:

- اتركي المهد واجلبي العشاء لسيبان.

اكمل الحاج شاهين صلاة العشاء واسند ظهره للوسادة . كان الجميع يشاهدون المسلسل التلفزيون ي (الماء والدم) وقبل ان تنتصف الحلقة انقطع التيار الكهربائي . كانت اللمبة تضيئ بنور خابي.

- لعنة الله عليه، لا يدعنا نكمل مشاهدة حلقة واحدة حتى النهاية.

قالت الام ونهض آزاد ليزيد ضوء اللمبة:

- لا تغضبي يا امي، لقد تركوا هذا الشعب سنوات في الظلام ولم يكتفوا بقطع الوقود والغذاء عنه ولكنهم حاولوا وبشتى الطرق اخضاعه، لم تبق صفيحة زبالة إلا وانفجرت فيها عبوة (تي ان تي) ولم تطل يدهم شيئا ولن تطال، لكنهم لو كانوا سمعوا بقصة ممي قبلان[٤] لنفضوا ايديهم منا وفقدوا الامل، تلك الترجيديا التي

حولها هذا الشعب الاكثر صلابة من الصخر والفولاذ الى اغنية يرقص على انغامها في الاعراس . في وقتٍ ما كانت كل الابواب موصدة بوجوهنا عدا بابهم، اليوم كل الابواب مشرعة امامنا إلاّ بابهم.

وقبل ان يجلس، توالى طرق عنيف على الباب.

- خيراً ان شاء الله، من تراه مستعجلاً هكذا؟ قال شاهين.

ذهب آزاد ليفتح الباب، وعاد بسرعة للداخل ووراءه ئيسف، وقف عند الباب وهو يجول ببصره في الغرفة.

- خيراً، ما بالك تبدو مضطرباً هكذا كالذي يطارده ذئب؟ .. تساءل شاهين.

- ألم تاتي نسرين الى هنا؟

- كلا بني لم تات.. اجابته حماته.

- إن لم تاتي الى هنا، اين يمكن ان تذهب؟

- اين تذهب كل يوم؟

- لم تعد للبيت ليلة امس؟!

- ربما لم تكن موجوداً في بيتكم ليلة امس، الله اعلم في أية حانة كنتَ تسهر، وذهبتْ هي الى عملها في الصباح الباكر، فهي مضطرة لتوفير لقمة الخبز لك، لو كنت رجلاً بحق لمكثت هي ايضاً في البيت.. قال شاهين بلا اكتراث.

انقلب ئيسف عائداً على عقبيه واخذ شاهين يضرب كفيه ببعضيهما وهو يقول:

- واأسفاه، طوال حياتي لم أسرق أو انافق أو أرتكب ما يشين، لكني عندما أرى عديم الناموس هذا اتساءل : ترى كيف ساقف

يوماً بين يدي ربي وبأي وجه أقابله؟ لو طردني من رحمته التي وسعت السموات والارض فسيكون ذلك جزائي الوحيد على ما اقترفته من ذنب بحق ابنتي، أي انسان عاقل حتى لو كانت لديه كلبة هل كان سيعطيها لرجل كهذا..؟

- اثابك الله يا رجل، نسرين لم تعد لبيتها ليلة امس وانت تصب جام غضبك عليه، ماذا يهم ئيسف اذا قلت او لم تقل !... قالت زوجته.

حمل آزاد كتابه ودلف الى الغرفة الاخرى دون ان يتكلم.

٣

انعطفت شيرين من الشارع ودخلت الزقاق، كان بعض الصبية يلعبون عند احد الجدران، رأت بعض النسوة وقد عقدن جلستهن اليومية امام باب احدى الدور، قشور بذور دوار الشمس غيرت لون الارض الاسمنتية. في منتصف الزقاق يبدو الاطفال كخرفان فقدت راعيها، بعضهم يلعبون ويعبثون، قسم آخر يتشاجرون والشتائم زخاتُ مطرٍ يمطرونها على بساتين امهات بعضهم البعض، الملابس الداخلية المعلقة على اسلاك الكهرباء تبدو كأعلام الاولمبياد.

- حباً لله، هل هؤلاء نسوة ام مطاحن؟ قالت شيرين بنرفزة.

ركل احدهم الكرة بقوة، مرقت قرب رأسها.

- المعزات افضل من امهاتكن، هذه تربيتهن السيئة .. قالت سعاد بعصبية وقد اقتربت من مجلسهن. هزت يدها وقالت:

- الاباء في المقاهي او يذرعون الشوارع والامهات يجرشن بذور عباد الشمس ويغتبن الناس وفي النهاية يقلن " ما لنا ولهم، امرهم الى الله" وفي آخر السنة يلدن ! لو كانت خطاياها عناقيد ما ابقيتن منها شئ، على الاقل كانت جارتكم.

- لا... والله المرأة لم تفعل شيئا سوى انها تركت زوجها و .. و.. ردت عليها عَيشو.

وقطعت خَمي حديثها:
- والله لقد هربت مع رجل آخر، يقال، في ذلك اليوم شوهدت امرأة تحمل طفلاً على كتفها بصحبة رجل وهما يتجهان صوب الحدود.
قالت الثالثة ضاحكة:
- الان هي مع مثيلاتها
- كفاكن.. اتقين الله، انتن لكن بنات، من تقل هذه الشهادة يجب ان تكون قد رأت الامر بعينيها... وعبرت مجلس النساء.
- والله يا حبيبتي، لم يشاهد احدٌ أمه وأبوه وهما... معاً! قالت عَيشو التفتت شيرين وقالت:
- البقرات افضل منكن، الرجل يترك بيته اربعة اعوام وعندما يعود يجب ان تكون تكّـة زوجته واطراف سروالها ممهورة بختمه المقدس، اما اذا خرجت الزوجة المسكينة اربعة ساعات من منزلها فانها تستحق الجلد، عقاباً من السماء.
جاءت اسماء وهي تحمل طفلاً على كتفها وتسحب آخر الى جانبها وقالت:
- آخر زمن، أصبح أيّ شئ تفعله المرأة صحيح، تخرج وتعود عندما تشاء. يقولون اذا ذهبت البنت الى المدرسة فانها لن تعود مُلكاً لا لأهلها ولا لزوجها.
- وفي الحقيقة انتن مُـلُـك ! آه منكن ايتها الارانب، الحماة والكنّة يفرخن معاً...
اشارت بيدها الى الزقاق .. " تكاثروا، تناسلوا " على حد قول علمائنا ذوي الجلابيب الطويلة والاربع زوجات الذين يقتاتون على فضلات موائد الآغوات، وفي فجر ممطر مضبب قمطريري

تلقفونا باذرع اخطبوطية ومن سموم التزمُّت والبَلادةِ ارضعونا وعليها فطمونا، أبتهلُ الى الله ان تتحول شرارة برق ربيعية الى سوط يلهب ظهورهم.
فتحت شرين الباب ودخلت الى حوش دارهم، كانت والدتها تنقي الحنطة، وطاسة نصف مملوءة بالزيوان وسطها، واطفال اختها الثلاثة يلعبون، احتضنتهم بحنو وقبلتهم، جاءت اختها جنار وبعد تبادل القبل وعبارات الترحيب، قالت شيرين:
- هل علمت لقد جاءوا يخطبوك؟
- ماذا؟ حقٌ على واحدة مثل كولي أن تترك اطفالها وتتزوج. تخلى عنها إخوانها، وأشقاء زوجها يسومونها سوء العذاب فيما زوجاتهم يختلقن لها كل مرة عشيقاً . حرام على واحدة مثلي التفكير بذلك، أشقاء زوجي المرحوم يقدمون الخبز لأطفالي قبل اطفالهم.
احتضنت الجدة الحفيد الذي ولد بعد فَقدِ والده:
- فليخسف الله الارض ببيوت الاشرار، تركوا نساءَ شعب، جميلات شابات، معلقاتٍ بشُرفات السموات، لا هن متزوجات ولا هن أرامل، وجيلاً من الاطفال يتامى.
جلست جنار الى جوارها واخذت تعاونها في تنقية الحنطة، قالت:
- اماه، هذه ليست الانفال الاولى، لقد فعلوا الاسوأ من ذلك كلما سنحت لهم الفرصة.
قالت الام بأسى:
- بنيتي، لا شئ يضيع عند الله.
قالت جنار وهي تستذكر احداث معسكرات (قلعة نزاركي) و (السلامية):

- ماذا ينفع اذا لم ينتقم الانسان بنفسه ويرفع الظ لم عنه؟ سيدخلهم الله نار جهنم، اليس كذلك؟ وماذا سنستفيد نحن؟
رفعت يدها اليسرى وضمت قبضة كفها ثم اردفت:
- يجب ان يثأ ر هؤلاء اليتامى لابائهم وامهاتهم وشعبِهم من المستشارين الكورد والمؤنفِلِين العرب في هذه الدنيا وليس في اي مكان آخر.
كانت جنار وشيرين تعدان ط عام الغداء وتتحدثان اثناء ذلك ووالدتهما تسمع اصوات ضحكاتهما، فقالت وهي منشغلة بتنقية الحنطة المسلوقة التي أُعدت لعمل البرغل "هاتان ستمضيان الوقت بالحديث وتتركانا بلا غداء" نادت عليهما:
- جنار.. شيرين.. اسرعا فوالدكما على وشك الوصول.
تناهى صوت جنار ممزوجا بضحكتها:
- اماه، الغداء جاهز.
والدُ شرين، جولي، تعدى السبعين من عمره لكنه لا يزال نشطاً موفور الصحة، ورغم انه اصلاً من قرية حدودية الا انه كان قد التحق بصفوف جيش ليوي البريطاني في مقتبل سني شبابه وعمل عدة سنوات في كركوك وتعلم القراءة والكتابة واتقن اللغة الانكليزية، وهو في هذا العمر لايزال يقرأ، باستخدام النظارات الطبية، الكتب الكوردية، بلهجتيها الرئيسيتين، اضافة الى العربية والانكليزية.
كان الجميع جالسين الى سفرة الغداء، وهَدار شقيقة شيرين الصغرى، محبوبة قلب والدها، تلعب مع اطفال اختها جنار، نادى عليها والدها:

- استمري هكذا في اللعب لكي نقول عنك دوماً صغيرة، تعالي اقول لك شيئاً.
جلست على ركبتيها الى جانب والدها وقالت:
- نعم يا ابي
- اتذكرين سلمان؟
- أيُّ سلمان؟
- سلمان ابو حكيم.
فكرت هدار للحظات وقالت:
- ابو هَلِز؟
- نعم.. نعم.. هو بعينه، ابو هلز، بنيتي.. ابنه حكيم...
- حكيم!!.. قل (حَكو) كي اعرفه، ذلك الصعلوك المتشرد ... الذي كان والده يطرده دوماً..
- هدار بنيتي، هل انت طالبة كلية او شاعرة عربية، اذا هجوت شخصاً، ما تركت فيه شيئاً، لكنك لا تعلمين ان والده قد طلب يدك مني!
- ماذا!؟ قالت هَدار بذهول وهي تشير باصبعها الى صدرها.. انا وحكو.. لا .. لا!
- بنيتي، حكو كان في الماضي، الان اصبح حكيم ..لا بل عبدالحكيم، لديه هنا بيت ذو طابقين وسيارة حديثة ويعيش الان في اوروبا.
- ابي، انت قلت " رجل بلا مال افضل من مال بلا رجل " وانا لا اتصور مرة ان هذا الشخص يمتلك اية صفات رجولية، ام يبدو انك مثل بعضهم تتوق الى الدولار .. هَلِز التي كنت اتحدث اليها

استعطافاً رأيتها ذات مرة في عرس، كانت تبدو في مكياجها وحليها الذهبية كبقرة عليها سرج جواد، ردت على تحيتي بتكبر وبطرف لسانها.
قالت جنار وهي تأكل:
- ستصبح معلمة، ولكن الاصح ان تصبح محامية!
اكملت شيرين:
- وهل تظنين ان المحاماة لن تليق بها!!
وانخرط الجميع في الضحك.
- لقد انسيتموني، ابي اريد ان انتقل من قسم اللغة الانكليزية الى القسم الكوردى.
- لماذا بنيتي الم يكن ذلك اختيارك؟
- أليس خطأً كبيراً ان يتقن المرء لغة اجنبية ولا يتقن لغته؟
- ليس فقط خطأ، بل عار وخطيئة كبيرة.
قالت هَدار وهي تصفق جذلى:
- لقد قررنا، كنير ومحسن وانا ان نذهب الى قسم اللغة الكوردية، ولكني كنت انتظر حتى اقول لك.
قال والدها وهو يبتسم:
- لقد ذكرتيني بحادثة، في عقد الثمانينات من القرن الماضي كان هناك كاتب عربي ينشر موضوعاً في صحيفة على شكل اجزاء، وكان هناك كاتب كردي يكتب نقداً على الموضوع بعد كل جزء . اخيراً اضطر الكاتب العربي الى نشر رد على صفحات تلك الجريدة قال فيه "كاكا.. العرب لديهم الاف الكتاب وهناك من غير العرب ايضاً ممن كتب ويكتب بالعربية، مثل جنابك. لذلك فالعرب

لا يحتاجون قلمك ولو كان يرتجى منك والافٌ مثل سليم بركات خيراً لأمتهم لكتبتم لأمتكم وبلغتكم شيئاً، لانها بحاجة اكثر . لذلك يا بنيتي فان الكوردى مهما خدم اللغة والادب الاجنبي فانه لا حاجة لهم بخدماته. ولكن الذي يكتب عشرة اسطر بالكوردية فانه يكون بذلك قد اضا ف شيئاً الى المكتبة الكوردية الفقيرة . تعلمتُ حب لغتي من الانكليز عندما كنت مع عسكر ليوي في كركوك.

- كان الملاّ يقول في خطبة يوم الجمعة "العربية لغة القرآن ولغة اهل الجنة"... قالت الام. اجابتها شيرين ضاحكة:

- اماه، أتصدقين انك انت هذه الام الكوردية المسلمة الملتزمة برسالة الاسلام لن تدخلي الجنة لانك لا تعرفين العربية وان امرأة عربية ترقص عارية سوف تنعم بالجنة لانها تتكلم العربية؟!

- إيْ والله يا ابي، لم يكفِهم انهم جعلوها لغة اهل الجنة، بل جعلوا القراءة والادب وحتى اسماء البشر بالعربية، حتى في براري وجبال كو ردستان يرتدون اللباس العربي . حتى في قلب عصر الكومبيوتر والعولمة يريدون منا ان نصبح دراويش لهم، نعلق المنخل والغربال في اكتافنا كالقرج، نهيل فيها الرمال المقدسة في بحث دؤوب يائس عن ذلك المفتاح الذي اقفلوا به عقولنا لقرون متوالية كي يظل قبلة انظارنا ولا يخرج تفكيرنا عن مداه وإلا .... فصفحات الانفال في انتظارنا.

اسم الانفال نشر الصمت المطبق على الجميع .. نظرت جنار الى الصورة المعلقة في الجدار، لم يكن زوجاً فقط، بل الحياة كلها .. في معسكر السلامية، الذي كان بمثابة فندق خمسة نجوم اذا ما قورن مع معتقلات النازية، هن اك افترقت يداهما لآخر مرة، ما

زالت في الحداد بانتظاره، انتظار الشيعة لمحمد المهدي، شعر والدها بمرارة الدمع الذي لم ينهمر على خدها لذلك قال لها:
- بنيتي، ذكرياتنا مع اخوتنا الاعداء كانت كالبركان الذي يغلي تحت الارض، وفي فصلِ ربيعٍ اسود انصهرت كل تلك الاحزان والمآسي، الكرب والاحقاد في بعضها، وللمرة الاولى وصلت بيننا مرحلة كسر العظم. البكاء نعمة كبيرة خص الله بها البشر، لكننا ما نزال نجهل قيمتها، يجب ان نبكي، الطفل الذي لا يبكي لا يأكل... ولكي يخرجوا من الاجواء المشحونة بالحزن ويكملوا غداءهم، قالت هدار:
- فهمت من حديثك اذن، انك لست موافق فحسب بل ومشجع لهذا الامر..
قطع والدها حديثها قائلا:
- وابارك فيه، مقدسة تلك اللغة التي يفهمها المرء ويتكلم بها . الصينيون يقولون ان لغتهم اصيلة وراقية . الارمن يقولون: لغتهم هي الاصل والبقية تفرعات . اليهود يقولون ان الله علم آدم اللغة العبرية، والاراميون يقولون ان لغتهم هي لغة المسيح والاسفار المقدسة، والاغريق يقولون ان لغتهم لغة الحكمة والفكر، و..و..والعرب لم يكتفوا بتنسيب كل هذا لأنفسهم بل وربطوا مصير الانسان باللغة العربية وجعلوها لغة حور العين وبطاقة التأهل للدخول الى الجنة!!
- ابي، كلمة حور تجذب الاهتمام، من اين جاءت باعتقادك؟ !.. سألت هدار

صمت جولي للحظات وكأنه يبحث في ارشيف ذاكرته عن جواب، قال وهو يكرر:
- حور، حور.. لا اذكر من كلمة حور سوى انها كانت اسم شعب يعيش في منطقة ميزوبوتاميا ولا شك ان فتياته كانت جميلات جداً مثل فتيات الدول الاسكندنافية اليوم، في نظر العرب على الاقل، فاستُخدمت كلمة حور لذلك الشعب، للذكر حوري وللفتاة حورية، لا اعرف ولكن من حسن الحظ أنه ليس هناك ملاّ يسمعنا!!

٤

سحب نفساً من السيجارة واستنشق عميقاً دخانها، لم يملأ فقط صدره بالدخان بل دفعه حتى رؤوس اظافره ومن فتحتي انفه نفث الدخان كمدخنة في يوم شتائي. نشوة الانتصار شئ جميل وخاصة لأنسان فاشل يرى احدهم يهوي امام عينيه فيستغلها فرصة لتوجيه سهامه المسمومة اليه . المجتمع غارق في كآبة دينية، سياسية، وجنسية ولكن همّ ئيسف شئ مختلف تماماً، فقد و جد نفسه محتقراً على الدوام واليوم سنحت له فرصة ذهبية، كان متأكداً في قرارة نفسه من طهارة نسرين العاقلة وانها لن تُقدم على ما يشين ولكنه مع ذلك ظل يلح بالسؤال " اين ذهبت؟ كانت تغضب دوماً لكنها كانت تعود الى البيت وقت النوم .. هكذا هي تربيتها .. جهاد المرأة في فراش زوجها".

سكون القبور يخيم على المجلس، كان شاهين يذوي كشمعة تحترق وقد غاص في التفكير .. دلف آزاد الى الحوش، الأم الحزنى جففت دموعها بطرف شالها الابيض ووقفت امامه، لكن الجواب بان على قسمات وجه آزاد (كلا). القى التحية وقبل ان يردوا السلام بادره شاهين بلهفة ارض يباب لبكاءِ السماء وهو يسأله:

- قل يا بني.. هل علمت عنها شيئاً؟

هز آزاد رأسه وقال:
- لم يبق احد في زاخو نعرفه ولم أسأله، لم يرها أحد منهم.
انكمش شاهين على نفسه كالقنفذ، بان التعب واليأس على قسمات وجهه الذي حفرت عليه سنوات العمر اخاديدها، الصق رأسه بركبتيه وصمت لبرهة هكذا، رفع رأسه وبدأ يجوب ببصره بين الحاضرين واحداً واحداً في نظرات ملؤها أسىً وتساؤل، وعندما رأى ئيسف دقق النظر فيه، طأطأ الاخير رأسه وكأنه يتفادى موجة غضب واتهام عارمة.. قال له بصوت ذليل:
- ئيسف، لو حدث مكروه لابنتي لن ينجدك عزرائيل وجبرائيل من يدي هاتين.
نهض واتكأ على عكازه وخرج الى الزقاق بخطوات سلحفاتية .. كان كالذي يبحث عن ابرة في كومة قش، وبعد بحث متواصل يائس من الصباح حتى عصرية متأخرة، شعر بالتعب . وعلى الارض الصخرية المطلة على الوادي والمدينة جلس ليرتاح، شعر بشئ من الارتياح.
تبدو المدينة كمرآة امام ناظريه. لف سيجارة، وبعيني صقرٍ عجوز حط في مكان مرتفع يبحث عن طريدة، بدأ ينقل بصره في المدينة.. حياً، حياً.. وزقاقاً، زقاقاً وهو يقول مع نفسه " أيُّ بيت بقي لم أدق بابه؟"
ظهر صبي يحمل طاسة ماء في يده وقال "اشرب الماء يا عم " ورغم انه لم يكن عطشاً إلا انه أخذ الطاسة من يده وتناول جرعة ماء، وقال له " رحمة الله عليك وعلى والديك".

على مقربة كان هناك رجل يكسر صخرة، صاح على الطفل " دشتان، تعال". التفت رأى غرفة مبنية على بقعة صخرية وسقفها من عوارض خشبية، وهناك بقربها قطعة من قماشِ خيمةٍ لفت حول اربعة عصي مغروزة في الارض، يبدو انها بيت الخلاء، وفي الجوار اطفال يلعبون في التراب.

اقترب شاهين من الرجل وقال له:

- قواك الله يا ابن اخي. هل هذا بيتك؟

رفع الرجل رأسه واستوى في وقفته، ثم مسح جبينه من العرق بكمّ قميصه واجابه:

- نعم انه بيتي.

- الانسان الكوردى له خصلة نفسية غريبة، يعيش الكفاف ويحب السكن في الاماكن المرتفعة، حقاً انه مكان يشرح القلب، ولكن كيف تعيشون على هذه الصخور، لا طرق.. لا مياه؟!

- مهما يكن فانه افضل من منّية مؤجرِ دارٍ عديم الضمير، يسأل قبل أي شئ آخر، كم طفلاً لديك؟ ويطلب إيجار ستة اشهر سلفاً ، ويرفع قيمة الايجار متى ما شاء..

مسد شاهين على رأس الطفل..

- دشتان، اسمك دشتان؟

- ولد في قرية دشتان (٥) الى جانب صخرة في تلك الليلة التي انشقت فيها بطن السماء، في الهجرة المليونية . هناك دفنت ولداً وبنتاً، ماتا من الجوع والبرد.. هربت بطفلين، كان احدهما يركض امامي، ورجعت من هناك بهذا، لذلك اسميته دشتان . انا من ناحيتي لن أنسى قط ما حدث ولكن لكي لا ينسى هو عندما يكبر.

- الامر يتطلب إرادة وعزيمة، إرادة قوية.. قال ذلك ومضى.
وصل خلف البيوت في طرف المدينة، استند الى احد الجدران . لم
ير نفسه في موقف صعب كهذا طوال حياته، الفقر والعوز وعشر
سنوات في صفوف البيشمركة، والاصابة عندما كان مع قوة
هلكورد. يتحرك في ظلام حالك وحيثما توجه ارتطم رأسه بشئ
أقسى من سابقه، وكل عثرة أسوأ من سابقتها، أربعة أيام مرت وقد
ضاعت أمامه السبل واللوم الذي لا يسمعه، يراه مجسداً في
نظرات الناس . قال مع نفسه "هذه حضيرة خنازير اكثر منها
مجتمعُ بشرْ.. فقدان هذه البنت سيجلب لنا العار، من بقي في هذه
المدينة، من الاقربين والابعدين، لم يعرف بالامر؟ لا استطيع قول
شئ، لا مجال للتبرير، انا استحق كل هذا، انا احصد ما زرعته
بيدي، وهل شاخ الاولاد والبنات في بيتي ؟ وحتى لو شابوا لكان
افضل من الحياة التي يعيشونها الان أو هذا العار. لم يكن من حقي
ان أزوجها لذلك القميئ، وبدلاً من ان يختار كل شخص شريك
حياته نعطي لأنفسنا ذلك الحق، جهلٌ وانانية، نريد ان نعيش
عمرنا وعمر غيرنا"
بدا كشخص افاق من نوم عميق .. اشعة آخر النهار بدأت تخبو
وقرص الشمس يبدو كقطعة صاج حمراء تغوص رويداً رويداً في
افق البرية. وصل الى البيت وقبل ان تسأله زوجته وكنّته، هز
رأسه وقال والكلمات تخرج من فمه كأنها حلقات سلسلة تسحب
عنوة من بلعومه:
- ألم يعد آزاد بعد؟
ردت كنته بنبرة ملؤها العطف:

- كلا يا عمي لم يعد..
- سننتظر يا عماه، عسى ان يكون لديه ما يعرفه عنها.
أمام خزان الماء في الحمام كان يغسل ساعديه وهو يتوضأ استعداداً للصلاة عندما وقفت كنته في مدخل الباب وقالت له:
- عمي، هناك رجل يسأل عنك!
- حسنا عماه، انا آت.
كان رجل يقف عند باب الدار.. قال له:
- تفضل يا عم خيراً!!
- انت الحاج شاهين؟
- نعم انا.
- بعثني الاغا لكي ابلغك بالحضور في ديوانه الليلة.
- حسناً يا عم.
عاد شاهين للداخل وهو يقول "ما الذي ذكّره بنا، أنا .. والاغا!؟ أردت ان أقول له ربما أخطأت العنوان، لكنه ناداني بالاسم، الاغا يذكر أقرباءه عندما تتطلب مصلحته ذلك فقط، آخر مرة رأيته فيها كان في شتاء عام ١٩٨٣، جاء الى بيتنا وقال، الحكومة سلمتني أمر تشكيل فوج من المقاتلين، انتم اقربائي ... وأخذ يلقي معسول الكلام.."

* * *

كان جالساً في صدر الديوان ببزته البَـركيز [٦] وهو يعتمر زوجاً من الكوفيات وقد افترشت اطرافهُا كتفيه، وجهه خمري اللون مورد الخدين يبدو كطفل الاعلانات على علب حليب الكيكوز، يتربع بجانبه صاحب اللحية نصف الشبر المضمخة بحمرة الحناء وصديرته ملآى بالآيات الكريمة والاحاديث الشريفة والفتاوى الشرعية لزوم الح اجة وفي خدمة الاغا على حد قول ذلك الاعرابي الذي قال (الاكل مع معاوية أدسم والصلاة وراء عليٍّ أتم والجلوس على التلة أسلم) . أنصاف ألهة ولدوا في جرة خمرة وفُطموا عليها، مئات السنين الامة تكدح وهم يأكلون، وقد جمعوا حولهم جيشاً من هؤلاء الامّعات أشباه الرجال العاجزين عن اعالة انفسهم، يرون انفسهم اهلاً فقط لخدمة الاغا . اثنان منهما مزروعان امام الباب وقد لفا قامتيهما بأحزمة الرصاص، تتوسط وجهيهما حزمة شوارب إنكشارية تنفع فقط في تخويف الاطفال، وقد حفظا عبارة واحدة، نعم سيدي.

كان كلا جانبي الديوان مزدحمين بالرجال، وأيّ واحد يدخل يمد يده اليمنى لمصافحة الاغا فيما اليسرى تستقر على صدره امتناناً لهذا الفضل الكبير من جانب الاغا، وكان البعض يقبّل كتف الاغا وهو بدوره لا يمانع ولا يكسر بخاطرهم، وبعد التقبيل يقول مبتسماً "أستغفر الله".

كان آزاد ينظر باندهاش الى قرود السيرك تلك، لانها كانت المرة الاولى التي يدخل فيها ديوان آغا، لم يصدق انه ما زال هناك أناس كهؤلاء، في زمن المحتل "نعم سيدي" وفي عصر الكورديَـتي "نعم سيدي ومائة نعم سيدي!.."

دلف خادم للداخل وقال:
- سيدي، يطلبون رؤيتكم في الداخل
- سأعود في الحال.
ومع نهوض جناب عظم ته، نهض كل من كان في الديوان الذي كان له باب خاص الى داخل الدار، واختفت قامته الشبيهة بالمحدلة بمشيته البطريقية خلف الباب .
جلس الجميع، ذكّرته طرقعات حبات المسبحات وأدخنة السجائر بتلك الليلة في نهاية شهر آذار وبداية ماراثون الهجرة المليونية صوب جَلىّ [٧]، تلك الليلة التي غرقت فيها المدينة في صمت القبور عدا صوت سمفونية واحدة كان يتناهى الى الاسماع، وهو نقيق الضفادع في نهر (هشكرو) في دهوك...
مع انفتاح الباب هبّ الجميع وقوفاً كرة اخرى ، وكأنّ محمد المهدي قد خرج من قبوه، ألقى الاغا التحية وجلس في مكانه، تناوب الجميع، واحداً واحداً، على الترحيب به.
"ايها المساكين، وكأن جنابه قد عاد لتوه من طواف بيت الله " قال آزاد يحدث نفسه.
تنحنح الاغا، وساد المجلس الذي كان يشبه حمام نسوان، سكون صلاة المآتم.. عندها قال الاغا:
- شاهين.. مصاهروكم يقولون إن ابنتك قد تركت بيت زوجها منذ عدة ايام، وعملاً بصلة القربى فقد أوصلوا شكواهم الينا، لذلك يجب ان تعودَ الى بيتها بأسرع وقت ولنحلّ هذه المسألة بيننا ولا ندع يداً غريبة تتدخل فيها ويُحال الامر الى دفاتر الحكومة والسين والجيم...

- صحيح ما تقولون سيدي، لكن...
رفع الاغا يده وقطع حديثه وقال:
- بدون ولكن... أرجِع اليهم المرأة وأنتم متصاهرون.
حاول آزاد أن يضبط نفسه إزاء لهجة الاغا الاستعلائية وصيغة الامر التي كان يحدث بها والده، لكنه لم يصمد:
- اختي كانت في بيتهم وليس في بيتنا والاصح أن يقال أين أختي؟ وبدلاً من نُسأل، فليجيبوا عن سؤالنا، ولكن م ا لم أفهمه إذا كانت كل مشكلة ستحل هكذا في الدواوين، فما نفع وجود الحكومة إذن؟!
عبس الاغا وتغضن جبينه وكأن عقرباً لدغه، وقبل ان يتكلم قال أحدهم "كيف تتحدث هكذا مع علية القوم..؟" وآخر "هذا لا يصلح للجلوس في الدواوين " وهكذا سنحت الفرصة كي يلقي كل واحد منهم خ طبته الدينية والقومية والاخلاقية في بازار الآغا ويعبر بفصاحة بليغة عن مدى إخلاصه له . أدرك شاهين ان الامور ستسوء، فسحب ذراع ابنه وغادرا دون استئذانٍ أوتحية خروج ...
وفي الزقاق:
- بني، أتعتقد ان جميع الناس مثلك؟ هؤلاء في صباحات الاعياد وقبل ان يباركوا لابنائه م وامهاتهم وابائهم يقفون كقطيع غنم في طوابير أمام باب الاغا.
- ابي، لم يبق سوى ان يتناول عصاه، ماذا ينتظر مني، ان أتخلى عن آدميتي ورجولتي واقول له : مولانا؟ ذلك أمر بعيد عن شاربيه. خادم الاغا سيد، وابن أخت الملا استاذ ويعمل التعاويذ، وراعي البقر الذي يعمل ل دى الشيخ، مباركٌ ويتعين علينا تقبيل يده...

- بني.. كي لا تتعرض للمتاعب قل ما يرغب الناس فيه وافعل ما تريده انت .. لم يقولوا عبثاً "طالما كان هنالك حمير .. فسيظل هنالك آغوات"

رد آزاد بعصبية:

- الحياة تتجه نحو التغيير، فقط نحن .. تخلفنا هكذا.. متى سيكون معيار الانسان عمله، وليس عشيرته واصله ونسبه. الرجولة باتت حزمة شوارب ومسبحة وسيجارة، وبقي من الديانة صلاةٌ فقط، تشقلَبْ على الارض مرتين وارتكبْ ما يحلو لك من المعاصي؟ ! عجيب امر هؤلاء الناس الجهلة، ولدوا احراراً من امهاتهم وبأيديهم يصنعون عبوديتهم، يحنون الرؤوس وا لهامات المستقيمة لأغوات وأثرياء لم ينضح جبينهم يوما قطرة عرق واحدة وهم يعلمون جيداً أن درهماً واحداً لن يفلت من بين ايديهم المغلولة البخيلة.

ضحك، ثم أردف "حضيرة خنازير"

اتجه الحاج شاهين صوب البيت فيما انعطف آزاد نحو التقاطع المؤدي الى مستشفى آزادي... ارتقى التلة الكبيرة وعند القمة وقف كقبج غريد، نظر من علٍ الى المدينة التي تغفو بين احضان الجبل الاسود والجبل الابيض وقال مع نفسه:

- بالامس الجو العفن ورائحته الكريهة والليالي والنهارات الصدئة تحت حوافر وبساطيل العسكر والرفاق الناهبين والسيّاح الحفاة المتربةُ اج سامُهم برمال الصحراء، تفوح منهم رائحة البعران، والعاهراتُ الرخيصات اللواتي هبطن في ليلة جمعة بمظلات

العناية الالهية كي يوجّهن التفكير في الرؤوس صوب مغارة ما بين الفخذين.
الرغبة في رحلة بعيدة، بعيدة، عالياً فوق الجبال والبحار وسِعة السماء الزرقاء الصافية دعته الى اطلاق صرخة، ملأ دويها زوايا الدنيا الاربع والكهوف الرطبة:
- جنةُ عدنٍ غدت مرتعاً ومرعىً للخنازير وكلابِ الصيد السلوقية.. الى الجحيم فلتذهب كل المقدسات والممنوعات.

٥

قبيل انتصاف النهار، إجتاز أضوية المرور في تقاطع شوارع أسواق السجائر والبورصة والسلاح . خلف زجاج الدكاكين التي تشبه أقنان دجاج، عُلقت أنواع مختلفة من صور العملات النقدية، دولار.. مارك.. فرنك.. فيما كانت العملة العراقية بطبعتيها السويسرية والمحلية ترقد طبقات فوق بعضها، نظر اليها ومد يده بحسرة الى جيب قميصه وأخرج أربعة د نانير ورقية مفردة وكأنه يقارن بين الدينار والدولار اللذين يتشابهان الى حد كبير في الشكل والحجم... قرّب الدنانير من شفتيه وبصق عليها بخفة . امام احدى الحيطان كان صبي يبيع السجائر، اقترب منه ووضع دينارين على العلب وسحب سيجارتين نوع (إل إم) من علبتها، أشعل إحداها فيما انزل الاخرى في جيب قميصه . دار على عقبيه وراح يتطلع الى الجانب الاخر من الشارع قبل ان يعبره . شبان وشياب واقفون على الرصيف وبعضهم جالسون على أرائك المقهى الخشبية. هناك من يعلق بندقية في كتفه، وآخر يحمل مسدساً في زناره، فيما تدلى منظارٌ على صدرِ آخر .. سوق السلاح حامية، فقد بدأت جولة اخرى من الحرب الانتحارية وتعيد نفسها في

كَبكي جالديران [٨] والنمورُ التي أعجزتْ كلابَ الصيد تُصطاد اليوم بسهولة، البعض يصبحون ضحايا والبعض يصبحون اثرياء... فرصة لتجّار الدين والدنيا ولكل رأسمالي وانتهازي لكي يوجهوا سهام حقدهم المسمومة. طبعاً هذا هو الظاهر من السوق، اما المخفي فهو بين طيات ملابسهم وخلف أنطقتهم القماشية وصديرياتهم أو في الدكاكين والبيوت القريبة، هنالك تجد كل انواع الاسلحة والذخيرة، أجهزة الاتصالات، الدروع الواقية من الرصاص، رشاشات (بي كي سي) وقاذفات (آر بي ج ي سفن) وللمرة الاولى وليس في فلم أمريكي مسدس (عقرب) وكواتم الصوت والرمانات اليدوية معروضة في الزقاق على بطانية قديمة لمن يدفع ويشتريها.

في منتصف الشارع جفل، إذ لم تبق سوى خطوة وتصدمه سيارة، صرخ بصوت ممزوج بالغضب والخوف:

- هل انت أعمى؟!

- إركب .. قال السائق ضاحكاً.

دار ئيسف حول السيارة، فتح بابها وجلس قرب السائق دون ان يفتح فمه بكلمة، لانه لم يكن يشعر لحظتها سوى بلهاثه ودقات قلبه التي كانت في اقصى سرعاتها.

- ئيسو.. كنتَ ستُحسب علي رجلاً . انت كما كنت في السابق، يد فارغة والاخرى لا شئ فيها، طاولة القمار يلزمها جيب مليئ.. بالمال.

- ماذا أفعل للحظ العاثر!؟

- ئيسف.. انت جوهرة مطمورة في الطين، ولكن أين الذي يقدّرك حق قدرك؟

دَشْتي.. رجل في الخمسين من عمره او أكثر بقليل، شعر رأسه وشارباه اللذان يشبهان ذيل فأرة، مصبوغان بالاسود على الدوام . له قامة متوسطة من جلد وعظم فقط، لكنه يبالغ في الاهتمام بنفسه وهندامه، ولولا ذلك الاهتمام لبدا تماماً كسجين سياسي أُطلق سراحه للتو من احدى المعتقلات العراقية، المشهورة على مستوى العالم، بعد عفو عام من الرئيس القائد الذي يُخلي السجون من نزلائها من الابواب الامامية وتُحسب على الشعب مَـ كرمةً، وفي ذات الوقت ومن الابواب الخلفية تُملأ السجون مرة اخرى استعداداً لعفو آخر، في مناسبة أخرى.

كان ئيسف الجالس الى جانبه يبدو، بالمقارنة معه، كأحد أبطال جيش شيركو الايوبي.

إنفتح السير.

نتيجة لقرن من الانتفاضات والثورات الكوردية غير الناجحة، بفضل المصالح الشخصية طبعاً، وبالذات بعد تسعين سنة حبلى بالاحداث فان كوردستان تمر بمرحلة مخاض . المخاطر كثيرة، حلقة الشرق المفرغة والديمقراطية المفروضة أو سوط العبودية الذي يئنون تحته منذ مئات السنين .. ذراعا الأمّ ممدودتان نحو السماء وهي غاصة في الوحل حتى تحت إبطيها و الآم المخاض سياط نارية تلسع عظام ظهرها والذئاب حواليها ترقبها بعيون جاحظة، لا تنام ولا تغمض وهي ممتلئة بالخشية، اذا وُلد الدجّال فانه سيدمر السلطة ومقدساتِ الشرق!!

- لماذا هم غير ملتزمين ويحبون الفوضى؟ سأل ئيسف
- إذا كانت رخصة القيادة تصل الى البيت مقابل خ مسة دولارات فان النتيجة ستكون هذه الفوضى.
كان ئيسف مشغولاً بما في داخل السيارة ولم ينتبه بالمرة لما قاله دَشْتي.. قال دون ان يرفع رأسه:
- قبل أقل من عامين عندما كنا نسكن في ذلك الكوخ، لم تكن أنت لتتمكن من دفع ايجار غرفتين، كانت زوجتك عن طريق خياطة الملابس تعينك في أمور البيت، لا أدري هل ما زال الراتب كما هو ومخصصات الزوجة والطفل دينارين واثنا عشر درهماً؟ هذه السيارة وقصرُ دمدم[٩] بجدرانه المبنية بالمرمر الايطالي ! هل ما زلتَ موظفاً أم تُراك اصبحت وكيل جمارك او آمر فوج!؟ ومد يده الى علبة سجائر نوع برلمان الفا خرة على مقدمة السيارة، سحب سيجارة واشعلها، ثم نفث دخانها وأردف.. كيف، ومن أين!؟
وبضحكة ممزوجة بالافتخار:
- مرت علي ظلال طائر الحظ . من هنا، وأشار الى صدغه، ثم أكمل مبتسماً:
- هل تريد أن تغدو من أصحاب الاموال ويقال لك استاذ وسيدي، مالٌ كثير.. وعمل يسير؟!
بسماع هذه الكلمات انتصبت أذنا ئيسف كأذني أرنب وزاغت عيناه.
- ماذا.. كيف؟
- ستتجول فقط.
- ماذا.. أتسول؟!

- هاهاها.. أيّ تسول ئيسو، ايها المسكين، هل تعتقد ان الذين يمدون أيديهم يتسولون ديناراً يعتاشون من ورائه؟ إنه تمويه ليس إلا. هنا في مدينتنا، الرخيصات وبائعا ت الهوى على السريع يتعثرن بأقدام بعضهن!
- إذن، ماذا سأفعل؟
- الترحال.. السفر، الى الموصل وبغداد .. سأزودك بأسماء وعناوين بعض الاشخاص الذين يقيمون في المناطق الخاضعة لسيطرة الحكومة، كل ماعليك هو ان تبحث عن أصحاب هذه الاسماء، اذا وجدت واحداً منهم يجب ان تقنعه وتجلبه معك وهكذا فان لك حصة من المال مقابل أيّ شخص تأتي به الى هنا.
- ومن هم هؤلاء؟
- كانوا من رجال النظام، العرب الساكنين في دهوك قبل الانتفاضة، وقد منح النظام في حينه أغلبهم أفضل قطع الاراضي السكنية والدور، مع الانتفاضة هربوا كأي محتل و .. و.. ونتيجة للحصار الاقتصادي فان العراق يعيش المجاعة والبلوى، ومعيشتهم في أدنى درجاتها، لذلك هم في حاجة ماسة للمال، اذا جلبت أحدهم ووقّع عقد البيع ستستلم حصتك فوراً.
- وهل المشتري جاهز هكذا؟ سأل ئيسف كمن سمع شيئاً لكنه لا يصدق.
قال دَشْتي بثقة لاعب متمرس:
- طبعاً، هذه لعبتي.. مكتبي الخاص بتجارة بيع وشراء العقارات في الخدمة.
- وكم ستكون عمولتي؟

- ليس أقل من عشرة الى خمسين الف دينار وحسب النسبة، أي عشرة بالمائة.
فغر ئيسف فاه..
- خمسون ألف دينار.. خمسون ألفاً؟
أطلق صفيراً ثم أردف:
- لكن! ماذا كان العرب في كوردستان سوى أمن ومخابرات وشرطة وواحدهم ليس أقل من مرتبة رفيق مناضل ! فكيف سيثقون بي للمجيئ الى هنا؟ وهل كان الذي يفعلونه بالناس هنا أقل مما كان يفعله الفرعون ببني اسرائيل، يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم..!
- قلت لك، هذه لعبتي. سأكون في انتظاركم عند نقطة التفتيش، أقل من ساعة، نصل الى الدائرة ثم أعيده الى نقطة التفتيش مع حمل مطية عربية من العملة المطبوعة.
- حسنا، دشتي.. متى ابدأ العمل؟
- اليوم، الان لو أحببت.. قال بفرح وهو يبدو كثعلب عجوز حظي بطريدة.
- حسناً سأذهب الان.. قال ئيسف وهو يشير برأسه.
مد دشتي يده الى جيبه ومن المحفظة المليئة بالدولارات أخرج ورقة وقال:
- هذان عنوانان لشخصين، أحدهما كان مفوضاً في الامن، ترك بيتاً وقطعة أرض تجارية، لو إشتريتُهما منه فانك ستشتري بحصتك سيارة برازيلي.

"هنيئاً لك يا ئيسف يا لك من محظوظ، كنت تنتظر نسرين متى تعود للبيت والاربعين أو الخمسين دين اراً التي كانت تأتي بها، كنتَ تحتار ماذا تفعل بها، أتشرب أم تلعب القمار؟ والان .. الان الآف الدنانير من الطبعة السويسرية ستحولها الى الطبعة المحلية وتنحدر في شوارع وأزقة بغداد و....."

كان يحدث نفسه والشياطين عقدت حفلتها في رأسه وهي تسعّر نار الرغبة والشهوة في صدره، كان يفكر في القصور والابراج وموائد القمار العامرة بما لذ وطاب من كل أنواع المشروبات والنساء الجميلات اللواتي يعرفن كيف يثرن غرائز الرجل . بغداد وليالي الرشيد وأبو نؤاس الحمراء الفاضحة، أساتذة في فن الشهوة والجنس، يآآآه ما أحلى الثراء!

التفت الى دَشْتي وقال:

- أستاذ ، سأذهب الان.

- هل لديك نقود؟

هز ئيسف ر أسه علامة النفي وسحب من جيبه دينارين فقط . مد دشتي يده الى خزنة السيارة أمامه:

- خذ هذه لك خمسمائة دينار... وأدار مقود السيارة:

- سأوصلك الى مرآب سيارات الموصل وسأكون في انتظار عودتك.

نظر الى سيار ات الكوستر التي تنقل المسافرين الى (فايدة) كان هناك احد الشباب يجلس الى طاولة وعليها حزم من الدنانير بطبعتيها السويسرية والمحلية، اقترب منه وسأله:

- كم تساوي خمسمائة دينار؟

أخرج حاسبة صغيرة وبدأ يحسب.
- ٥٠٠ ضرب ٤٨ تصبح ٢٤٠٠٠ اربعة وعشرون الف دينار.
استبدل فلوسه وهو يقول "دولار واحد يساوي ١٧٢٨ ديناراً وراتب الموظف خمسة الاف دينار، لذلك كان السيد جورج يقول "العراق غارق حتى أذنيه في الدعارة"
كان ينظر من خلال نافذة باص الكوستر الى المدينة والدور الكبيرة والسيارات من كافة الماركات والموديلات، قال في نفسه "اذا جرى الماء في ساقيتي، تكفيني سنة واحدة"
في مفرق منطقة (آلوكا) الذي تحول الى مركز لتحميل النفط، حولته شاحنات النفط التركية الى مايشبه بيت النمل . ذكّرته البناية الواقعة على قمة التلة وطابور السيارات في آلوكا بتلك المرة الوحيدة التي جاء فيها مع أمه يزوران خالته وأطفالها بعد أن ألقوا القبض عليهم وأودعوهم سجن النساء في تلك القلعة لأن ابنها هرب من جحيم القادسية، وذكّرته أيضا بطوابير النساء والرجال وهم يتدافعون من اجل الحصول على قطعة لحم روست أو أية حاجة أخرى من مستلزمات البيت على أيام (الاوروزدي) المقبور. راح يفكر.. العفالقة كانوا يدفعون الناس دفعاً للانحراف، في هذه البقعة المباركة من كرة الارض هناك مبدأ يقول "جوّع كلبك، يتبعك دوماً" قرية على بحر من البترول، الشرق والغرب أُتخِموا منه، الخمرة تملأ الاسواق والوقود شحيح ! وأحيانا تنفد المواد الغذائية من الاسواق، لان الت فكير بغيرها أمر خطير ... أساتذة، خبراء في سايكولوجيا البشر . كل من استلم زمام الامور بدأ يوزع الهبات والعطايا، إملأ فم المُلاّ والآغا والباقي يتولاه

السوط والرصاصة و .. و.. وفي الاعياد والمناسبات الوطنية والقومية والدينية وحفلات الزواج وأعياد الميلاد، تفتح أب واب الخزائن على مصاريعها . جاءت أجيال وذهبت أخرى ونظام المكرمات لم ينتهي، البعض يموت بالتخمة من المال والبعض يموت من أجله ... المال مال الله، وكلمة سيدي ومولاي هي المفتاح. ومن إستعصم فليتضرع الى الله.. من المهد الى اللحد لُقنوا جملة واحدة "بالروح بالدم نفديك يا..." لا غرابة فجميعُ (حفظه الله) ات خرجوا من تحت رداء معاوية والمنصور (رضي الله عنهما) الى أن يظهر (أدام الله ظله).

قبل نقطة التفتيش لمح صديقه حجّي فأشرق وجهه، كانت سيارتاهما متقابلتين، نادى ئيسف:

- حجي، كيف الحال، لم أرك منذ مدة طويلة؟

التفت حجي جهة صوت ئيسف:

- ئيسف.. تنورت عيني برؤيتك ! وهل هناك شئ، عدا نبات الخبّاز، متوفر أكثر مني في دهوك؟ ولكن كيف تركت الطاولة دون راع؟

- هل ستذهب في رحلة صيد وانت متأهب هكذا؟ .. قال بعد ان ترجلا.

- مثل لاعبي القمار .. نحن المهربين ايضاً كالخفافيش نخرج من بيوتنا بعد أن ينام الناس!

- المهرب.. إذا أُلقي القبض عليه ذات ليلة يذهب جهدَ سنةٍ كاملة أدراج الرياح، تعال إشتغل معي، عمل بسيط وربح وفير، فيفتي .. فيفتي، وبأخوّة.

قال حجي ضاحكا:
- أخوّة المهرب والمقامر ستكون كأخوة الثعلب واللقلق [١٠] وفي أحسن الاحوال ستكون مثل ... وأشار با صبعه جهة نقطة التفتيش... كم جرّت على رؤوسنا هذه الفيفتي فيفتي.
إقترب منه ئيسف، شاوره في أذنه... قال حجي بغضب:
- ما تقوله أسوأ من النهب والرشوة التي أصبحت اليوم أمراً اعتيادياً، انها خيانة، مهما كان وتحت اية ذريعة.
قطع احد رفاق حجي حديثهما "هيا أسرعوا فلنذهب"
صعد حجي الى سيارة اللاندكروزر وترك ئيسف، وانطلقت السيارة منعطفة نحو سفح الجبل على الطريق الترابي . الوقت أصيل متأخر وقرص الشمس يبدو كبرتقالة فضائية معلقة وهي تتدلى في أفق سهل (هَسنا وميرا) كانت اطارات سيارة اللاندكروزر، كقطار يعمل بالفحم الحجري، تخلف ور اءها عموداً من الغبار. كان يجلس بجانب السائق ومن خلال نافذة السيارة كان يرى من بعيد سيطرة (فايدة)... طوابير السيارات وزحمة البشر عند السيطرة تبدو كمشهد أيام زيارات السجناء ... الاخوة المؤمنون الذين كان الفرات ذات يوم حدودهم، شردونا اليوم . في الشدائد والمحن يلبسون عمامة الاسلام وفي أيام الفرج عقال العروبة، وبأسم الله يدفعون الاخرين من ضيق الدنيا الى سعة الجنة...
ورغم انه كان يرى ذلك المشهد كل يوم تقريباً، لكنها كانت المرة الاولى التي تذكّره بمرارة التجربة، التي لم ينسها قط، وبتلك القوة

ودقة تفاصيلِ أحداثها ... قال مع نفسه "لا أدري ما هو السر في هذا الامر الذي يدفع الناس لسلوك مثل هذا الطريق؟"
وتردد صدى صوت جده في أذنيه عندما كان يتهيأ للذهاب الى الحج والقرويون يدعون له بسلامة العودة وهو يقول " أَدعو الله ان يتوفاني هناك "... مالت اللاندكروزر الى جانب وهي تجتاز حفرة في جانب الطريق الترابي.
غاص في ذكريات الامس.....
إجتازت الاطارات المطبّ المعمول بالاسفلت على الشارع ووقفت سيارة الاجرة البرازيلي التي كان يستقلها في نقطة تفتيش (سوارَتوكا).
يوم الخامس عشر من آيار ١٩٨٢ كان ذلك اليوم الذي أُرسل فيه مع مجموعة من الشباب من معسكر (آميدي) الى مركز التدريب العسكري في الموصل، ونتيجة لتواصل المعارك الطاحنة بين العراق وايران والخسائر البشرية الهائلة فقد ازدادت حاجة جبهات القتال الى الوقود البشري يوماً بعد آخر، لذلك فقد تم إعدادهم وتوزيعهم على مختلف المناطق خلال ثلاثين يوم اً فقط، وكان نصيبه ان ينقل الى معسكر أبو غريب قرب بغداد، الوحدة ٢٧٢ الخاصة بالنقل والتموين . كانت قد مرت على الحرب عشرون شهراً بالتمام والكمال، وعلى جانبي الحدود كانت ارض كوردستان ميداناً للمعارك بينهما وهكذا فقد لحق بالكورد أكبر الضرر، البشر، الطبيعة والحيوانات... وبأسم الدفاع عن الوطن من قبل الطرفين فقد وقع الالاف من الشباب الكورد ضحايا، تم تهجير القرى والمدن كي تتحول الى مناطق عسكرية محرمة،

وهكذا دُمرت أجزاء واسعة من جنوب كوردستان . التاريخ يعيد نفسه ولكن بأسم مختلف كل مرة، العثمانيون والصفويون، العرب والمجوس، السنة والشيعة، صدام والخميني.. أكباشُ فداءٍ من أجل فكرة عفنة.. يُلبسونها ثوباً مباركاً، حروب المراهقين التي لا تنتهي وليس للكُرد فيها لا ذيل عنزة ولا أذن حمار.

وبعد ان رفع عريضة مشفوعة بمئات الرجايا ولمرور ثلاثة وثلاثين يوماً منذ ان خرج من بيتهم، فقد سُمح له باجازة لمدة يومين، الثلاثاء والاربعاء، وبما ان اليوم التالي هو الخميس فقد منح مساعدة لأن الدوام فيه نصف نهار وبعده الجمعة وهي عطلة رسمية، على ان يلتحق بوحدته صباح يوم السبت.

سافر الى قريتهم وزار أهله وعائلته وخرج صباح يوم الجمعة من البيت على أمل أن يسافر بالقطار من الموصل عند الغروب فيصل بغداد صباح السبت... وهكذا خرج بملابسه العسكرية من القرية، لكنه لم يصل بغداد يوم السبت!

تأخرُ أو فقدانُ كوردي في منطقة الشرق الاوسط التي ينام فيها المرء وطنياً وينهض خائناً، أو تابعاً في الصباح ووزيراً في المساء.. ليس شيئاً غريباً . في هذه البقعة الملعونة من الكرة الارضية، بلادِ الف ليلة وليلة، مهدِ الرشيد وأبي نؤاس اللذين ماتا وتكّتَيْ سروالهما في يديهما . كان يَسمع على الدوام : وطنُ الرسالات والانبياء من الفرات الى النيل . الفلاسفة للاغريق، وللرومان مجلس الشيوخ، والشرق مصنع الانبياء و "تيتي تيتي، مثل ما رحتي..."

كانت الساعة تشير الى العاشرة والربع من صباح يوم الثامن عشر من حزيران... قَطعُ السيرِ وتعطيلهِ وإدخالِ الضجر الى نفوس الناس ربما كان من علامات السيادة أو إستعراضاً للعضلات، كان الوطن كله مزين بأقوال الرئيس وشعا رات حزب البعث وجاءت الشعارات ضد ايران لتكون حملاً اضافياً، لقد ابتُلينا بدجال وكافر، كحجارتي الرحى:

بحر الروم هذا وبحر الطاجيك كلما تحركوا أو راموا الخروج
يتلطخ الكورد بدمائهم يقسّمونهم وكالبرزخ يجعلونهم

قفزت الى ذهنه هذه الابيات من رائعة الشيخ خاني[١١]

"فليمتلأ قبرك بالنور، مرت ثلاثمائة سنة ومازال الآغا والملاّ منشغلَين، أحدهما يكنز الذهب والفضة والاخر يوزع الحوريات".

عندما جاء دورهم، جاء إنضباط أسود البشرة موشوم اليدين والوجه وطلب من ركاب السيارة إبراز هوياتهم على الفور وكان يمطر كل واحد بزخة من اسئلة لا معنى لها، من أين جئت .. الى اين ستذهب.. ولماذا؟!

وكان سائقو التاكسيات قد تعلموا، عندما يصلون السيطرة فانهم، وبشكل اوتوماتيكي، يترجلون من السيارة ويفتحون صندوقها الخلفي فيما الركاب يهيؤون الهويات والمستمسكات الرسمية قبل بلوغ السيطرة وهم يعرفون مقدماً ماذا سيُسألون. في أوروبا قليلاً ما تجد نقطة تفتيش بين دولتين ويحاولون إزالتها أيضاً، وفي الشرق فان وجودها بين مدينتين أمر عادي، أما في كوردستان فان وجود سيطرة بين قريتين ليس أمراً غريباً، ولو كان في الامكان لنصبوا بين كل دارين سيطرة . من دهوك حتى آميدي ستون

كيلومتراً وهو يَعدّ السيطرات على أصابع يديه "وادي بيسري، منطقة زاويتة، وادي زاويتة، مفرق كورا، باگيرا، سوارَتوكا، سكرين، مدخل سرسنك، مغادرة سرسنك، ئينشكي، سولاف، مفرق آميدي- ديرلوك، وأخيراً مدخل آميدي " ثلاث عشرة وعند المساء تُغلق أبواب وطرق ات هذا الحقل المزروع بالالغام من زاخو حتى خانقين...

دقق الانضباط في ورقة الاجازة:

- انتهت يوم الاربعاء واليوم هو الجمعة؟!

- نعم ولكن أَعطوني الخميس مساعدة واليوم عطلة رسمية.

- لا يجوز، أبداً لا يجوز.

وذهب الى غرفة السيطرة ثم خرج وعاد ومعه نسخة مصورة منه، أحد الزبانية الأفتح بشرة من الكل، مغضن الجبين تحسب أن عقرباً قد لدغه في وجهه:

- حجي رمضان عبدال... إنزل!

اثناء النزول كان يتمتم "إن شاء الله ستنكسر رقبته ورقبة أبيه في سبعة مواضع، لم يكتفِ برمضان وعَبدال فأضاف اليهما حجّي أيضاً. يامساكين، الحج في عربستان و لا تجد عربياً واحداً إسمه حجي!"

وبعد إستجواب سريع...

- هذه الاجازة مزورة.

وكمن سُكبت فوق رأسه جرة ماء بارد:

- مزورة! بالله عليكم لست ذلك الرجل الذي يمكنه فعل ذلك.

- إسمع! قل الحقيقة أفضل لك، وإلا سأرسلك الى مخابرات سرسنك.. وأشار للتاكسي بالذهاب.. وأنت قف هناك.
تحت الشمس كان يحدث نفسه "ماذا أفعل انا المسكين بين أيدي فاقدي الضمير هؤلاء؟ هم يعرفون شيئاً واحداً فقط، هو ذلك الذي يريدونه"
أركبوه سيارة الجيب بعد أن قيدوا يديه بالكلبجات، ومن سوارَتوكا وحتى سرسنك كان قلبه يحدثه مائة حديث وتتصارع في رأسه الاف الافكار السوداء. صحيح انها المرة الاولى التي يقع فيها بين أيديهم، لكن ما سمعه عنهم ليس بالقليل. دنيا الله على سعتها ضاقت عليه أكثر في سيارة الجيب وهو جالس بين منكر ونكير . ومن مفرق (بَربانك) باتجاه سفح جبل (كاره) حتى مدينة سرسنك السياحية حيث البيوت المتناثرة بين أ شجار الصنوبر والدلب، وفي أعلى احدى التلال قصر الملك، تلك البناية الوحيدة في المنطقة التي بني سقفها من القرميد الاحمر بسورها العالي والبوابة الحديدية الكبيرة.
بعد ان إجتازوا السيطرة وقرب دائرة الاحوال المدنية وقفت الجيب، بناية عتيقة جدرانها رطبة وقد بنيت با لكلس وسقفها مدعم بحديد الشيلمان. في الاستعلامات كانوا يصرون على سؤال واحد، سأله الذي يرتدي ملابس مدنية:
- من أعطاك الاجازة.. ما اسمه؟
وعندما فقد الامل بالحصول على أية اجابة، رفع سماعة الهاتف "نعم سيدي...." كان حجّي يفهم بعضاً من كلامه لأنه درس أربعة

أعوام في الابتدائية وقرأ القرآن عند مُلاّ القرية ... وضع السماعة، ونظر الى حجي بغضب وقال "خذوه".
اسفل الشارع، يقع معسكر منطقة سرسنك ... وقفت الجيب عند باب احدى الغرف، مسكه منكر أو توأمه نكير من ذراعه وسحبه الى خارج السيارة، دفعه الى داخل الغرفة، صوت إرتطام حذاء الجنديين بالكاشي وهما يؤديان التحية العسكرية كان له صوت إنفجار رصاصة. كانت الغرفة في غاية الترتيب والعناية، خلف الطاولة رفع ضابط برتبة رائد رأسه:
- حرِرا يديه وانصرِفا!
فتحا القيود عن يديه وكررا أداء التحية العسكرية . فرك معصميه حيث تركت الكلبجات خطاً أحمراً عليهما. في الزاوية كان التلفاز يعرض برنامج صور من المعركة ... دبابات ومدرعات مدمرة وميدانُ أرضٍ واسعة ملآى بالجثث المتورمة والمتفحمة . وفي صور أخرى مدفع نمساوي وبجانبه الرئيس القائد وضيوفه الاسبوعيين، سحبَ حبل الاطلاق، وكانت كومة من الجنود والضباط يتراقصون و يهللون حولهم، وبعضهم يلقي أبياتاً بالعامية، وكان الرئيس يستمع منتشياً بفخر . قال حجّي في نفسه " نمّام الاردن، وضبع اليمن، أصبحا مثلنا نحن الجنود يمضيان عطلة الجمعة في بغداد".
كانت هناك امام طاولة الضابط أريكتان بينهما طاولة صغيرة يستقر عليها قدح وابريق ماء، اشار الضابط باصبعي السبابة والوسطى والقلم بينهما الى الطاولة الصغيرة:
- اشرب، اشرب الماء

اقترب من الطاولة وهو يعرف حق المعرفة ان الضابط لم يكن منشغلاً بالقراءة، بل يراقبه عن كثب . ومن الخوف او العطش او ربما كليهما معاً كان بلعومه قد جفّ واستحال نقطةَ تفتيشٍ عراقية لا يعبر من خلالها شئ، وكل الماء الموجود في الابريق لن يطفئ الجمر الملتهب في صدره.

- اجلس حجي...

وقدم له سيجارة كريفن ووضع الولاعة امامه، بعد لحظات من الصمت قال:

- جريمتك هي التزوير، وعقوبة التزوير ليس اقل من ثلاث او اربع سنواتِ حبس.

وضع مرفقيه على الطاولة وشبك اصابع يديه، وهو يحرك ابهاميه حول بعضيهما في حركة لولبية وينظر الى حجي بدقة.

- اسمع حجي، انت شاب والمستقبل امامك، انت تريد بيتاً وزوجة وسيارة، وهذا حلم كل شاب، انت من اهالي قرية (....) التف بجسمه على الكرسي الدوار وأشار من خلال النافذة الى سفح جبل مَتينا وأردف:

- البيشمركة يأتون الى قريتكم، لذلك اذا تعاونت معي فانني سأريحك من وضاعة وقذارة العُرفاء أولادِ الكاولية، ستحقق كل احلامك وآمالك وسيتم تأمين كل احتياجاتك، قطعة ارض سكنية، سلفة بناء، زوجة وسيارة اضافة الى راتب شهري جيد ومكافآت وهدايا وكل هذه الفترة ستُحسب لك خدمة عندما يحين موعد تسريحك من الجيش، عندها لك الخيار ان تبقى معنا أو تتركنا.

ثم رفع يده وواصل كلامه:

- لا تقل شيئاً حتى أكمل...
وعاود قراءة الكتاب ثم أردف يكمل خطابه عن الوطنية والحكم الذاتي والاخوّة العربية الكوردية وكلام بذئ عن الب يشمركة وعمالتِهم لأعداء الاسلام وخداع هذه الزمرة للشعب الكوردي.
انكمش حجي في كرسيه كالقنفذ، كان يقول في نفسه "لم أفهم شيئاً، لكني أعرف جيداً، أن المثلث الملعون (ترك، فرس، عرب) لم يقل أبداً للانسان الكوردي أخي لاجل سواد عيونه أو هكذا لله!
- أهربْ من الخدمة العسكرية، عد الى قريتك، خالطْ ابناء القرية والبيشمركة، وجه الشتائم للنظام وللرئيس لكي يصدقوك (وكان الضابط اثناء حديثه يكرر القول : لا تقل شيئاً حتى اكمل) وأية معلومة تحصل عليها، كم عددهم ، ما هي أسلحتهم .. أية معلومة مهما كانت صغيرة وغير ذات قيمة اتصل بي من مكان منعزل او في حضيرة، ساعطيك جهازاً صغيراً ورقماً سرياً.
مرت برهةُ صمتٍ كانت عيون الضابط خلالها تراقبه، ان يبدي أيَّ شئ، لكن حجي كان يصغي فقط وهو مذهول تماماً.
- فكّر جيداً، انت شاب، لن تبقَ في بغداد، ستُنقل الى جبهاتِ حربٍ ضروس لا تبدو لها نهاية، مصيرك الاستشهاد وفي أفضل الاحوال العَوَق ... حجّي لك ثلاث دقائق تفكر خلالها وتعطيني الجواب.
لم يجرؤ حجّي حتى على التفكير داخل نفسه لئلا يسمعه الضابط، ومرت الدقائق الثلاث كدقائق الانتظار ما قبل الافطار او الموت ثقيلة مؤلمة، وكان كالذي أفرغ ثعبان جرعة سم في جسمه يح س بالسم يجري في عروقه باتجاه قلبه ويضيّق عليه نَفَسه ... شعر

بصوت يناديه من أعماقه "هذا ما كان ينقصك، مسكين حجّي، أن تصبح جاسوساً، ولمن وعلى من؟ العم والخال والاقرباء والقرويين، حتى الأباعدُ أيضاً هم كورد مثلك وإخوة لك " التفت الى الضابط وقبل أن يتكلم:

- لا تتكلم، لك دقيقتين أخريين.

وكالذي لم يشرب خمرة في حياته وكرع زجاجة بكاملها، كان حجي في وضع لايمكنه التمييز بين رأسه وقدميه، وفي ضجة الافكار التي تتناوشه أخذ يرتجف

- ها حجي، هل إتفقنا؟

- سيدي انت تتحدث عنهم وأنا هنا أرتجف خوفاً، أنا لست الرجل المناسب لهذا العمل، سيكتشفون أمري من بعيد .. قال حجي بتذلل وخوف.

- حجي، فكر في الامر جيداً وانظر الى مصلحتك ولا تفوّت هذه الفرصة على نفسك، جبهات الحرب أمامك، طبعاً بعد أن يُطلق سراحك من السجن.

- سيدي.. انني أخاف منهم كثيراً، هيأتهم وهندامهم ولحاهم الطويلة، يبدون كالدببة والغضب يتطاير من عيونهم.

استمرت الجلسة ساعة واحدة لم يتمكن خلالها الرائد ان يحصل على أيّ شئ من حجي، بدأت سيماء الغضب تظهر على وجهه وصرخ فيه بصوت مرتفع " أنت ما تستاهل ... ولّي" وكبس زر الجرس، ومع إنفتاح الباب وصوت ارتطام البسطال بالبلاط وقولة "نعم سيدي" قال الضابط:

- أرسلوه الى زاخو

أمضى تلك الليلة في معتقل المعسكر مع سبعة آخرين، لم يبدو من أحاديثهم انهم معتقلون، تظاهر بالغشمة والجهل التام باللغة العربية، كانوا يتحدثون ويضحكون ويكيلون الشتائم، عدا ذلك الذي كان يجلس في ركن الغرفة، بدا كغرابٍ بلله المطر، ساكت اً وعلامات اليأس والتعب بادية على ملامح وجهه.

في الساعة السابعة صباحاً وضعوا يديه ويدي الغراب في الكلبجات وساقوهما الى سيارة الجيب، وهكذا غدا الغراب رفيق رحلته، كان يدعى (مشعل) وهو شيعي من اهالي مدينة الثورة ببغداد. قصة مشعل أنه حاول الهروب الى ايران عن طر يق كوردستان ولسوء حظه اعتقل قبل ذلك، وقد اضطر، تحت التعذيب الشديد، الى الاعتراف.

كانت الجيب تسير في الشارع العام داخل دهوك، وكان حجي ينظر الى المطاعم والمقاهي والناس عله يلمح شخصاً يعرفه أو أن يراه أحدٌ فيُعلم أهله بالامر، وباجتياز الجيب لمستشفى (كري باصي) تحول الامل في رؤية شخص يعرفه الى سراب . من المفرق حتى زاخو كانت طوابير الصهاريج التركية تبدو كصفوف النمل. هنا في سهل (دوبان) بين الجبل الابيض وضفاف دجلة العارية من الشجر، هُجّر الكورد وطردوا من قراهم و مجمعاتهم السكنية وتم توطين العرب مكانهم، مثلما حدث في امريكا عندما تم اقتلاع الهنود الحمر وزرعوا مكانهم الزنوج والبيض، وكان يمكن رؤية نساء البدو العربيات بجلابيبهن السود واصحاب العقال المسلحين.

كانت الجيب تسير بصعوبة بسبب الشاحنات التركية التي كان طابور منها يتجه جنوبا وآخر صوب الشمال . كان كلب تركيا يسمن على حساب موتِ حمارِ العراق وايران[١٢].

في مدخل وادي جبل زاخو لاح رأس بناية، وكانت الصهاريج المحملة بالكازويل، وهي ترتقي صعوداً الشارع الذي بدا بالتواءاته كثعبان اسود، تزحف في سيرها والكازويل يقطر منها محوِّلاً الشارع الى مزلقة كالصابون، وكانت رائحة الشارع تُشع ر الانسان وكأنه يعبر في كركوك . توقفت السيارة أمام بناية على يمين الشارع، أنزلوا السجينين وساقوهما أمامهم، ادخلوهما غرفة تبدو كصالة صغيرة، طاولة في الامام صفت قبالتها مصاطب خشبية، يبدو انها مكان للاجتماعات حيث يأتي الجنود بعد التدريب والتمرين على القتل، الى هنا، مختبر غسل الدماغ ... على الجدران الداخلية والخارجية للبناية، مثل أيّ مكان آخر في هذا الوطن، تزدحم الشعارات التي خُطت باليد بالبنط العريض (البعث طريقنا.. جئنا لنبقى.. امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة) تمتم مشعل " العرب متفقون! ليتهم لم يتفقوا أبداً "

- سيدي... ووضع أمامه الاوراق.

لم يكن ثمة شئ على كتفيه ما يشير الى رتبته العسكرية، وفي سجن زاخو فيما بعد عرف ان اسمه حمدي، تركماني من تلعفر، وسبب عدم حمله الرتبة العسكرية كونه ضابط تحقيق في المخابرات. في عراق الاخوّة والتسامح والتعايش، وتحت قيادة الرئيس المسرتنسخ عن جدوده، التحقيقُ والتعذيب توأمان . سلسلة

النسل الطاهر، من عبدالله الاب الى عبدالله الانفالجي حلقاتٌ متصلة بلا إنقطاع...
نزعوا القيود عن معصميه . سحب الضابط بالملابس المدنية، أو حمدي التركماني، الاجازة من بين الاوراق التي كانت أمامه واخذ يقلبها في يدهِ. نظر الى حجي وقال "من زوّرها؟" واقترب منه.. جسمٌ رياضي بعضلات مفتولة، أرخى يده اليمنى وانهال على وجهه بصفعة . شعر حجي بقدميه ترتفعان عن الارض وعندما استعاد وعيه وجد نفسه ملقى بين المصاطب الخشبية، أذنه اليسرى التي تلقت الصفعة تعطلت عن تلقي الاصوات ثلاثة أى ام واليمنى كأنها معلقة بناقوس كنيسة نوتردام والأحدب يتأرجح بها . الاخوّة كلمة براقة تدبج في الخطب، وأخوّة الدم والعِرق أقوى من أية أخوة اخرى.
قال أحدهم للضابط أثناء التحقيق:
- سيدي... الاجازة سليمة.
- أعرِفْ... ولكن الذي يدخل الى هنا يجب ان لا يخرج قبل ان نملأ جوفه وقلبه بالرعب كي لا يفكر مرة اخرى، حتى في منامه، بالتمرد! ونسل شياطين سليمان هؤلاء ولدوا ليكونوا عبيداً لنا، اسحبوه للداخل.
ساقوه الى احدى الغرف، وقف حمدي فيما التمّ عليه الثلاثة الاخرين، وانهالت اللكمات والركلات من كل جانب حتى أفقدوه الوعي، سكبوا عليه الماء ليفيقوه، كان خائر القوى وكل قطعة من جسمه تئن، وقف حمدي فوق رأسه وقال "قل لي ما اسمه؟ أنظر حواليك!" رفع حجّي رأسه وتطلع بعينيه المتورمتين ... كيبلات

بمختلف الاشكال ومروحة السقف المنزوعة الاجنحة، ولطخات حمراء على الجدران . كان حمدي يحمل في يده شيئاً أسود اللون يشبه مصباحاً يدوياً ذي أربع بطاريات، قرّب رأس ذلك الشئ من ذراع حجي، وما أن لامس جلده حتى قفز نصف متر وهو يطلق صرخة عنيفة، وكرر ذلك عدة مرات . كانت المرة الاولى التي يشعر فيها حجي بصعقة التيار الكهربائي، ورغم انه يعيش في بلد البترول، لكن قرى كورد ستان لا تزال تعيش في العصور الوسطى، وفي قريته لا توجد كهرباء، ولا طرق، ولا عيادة ولا.....

معلوماته مستمدة من القصص والحكايات الشعبية والراديو الذي احبه منذ طفولته . وبالاضافة الى سماع راديو الثورة الكوردية والاذاعة الكوردية في بغداد ويَريفان، ورغم معرفته ا لشحيحة بالعربية إلا انه كان في الليل يمر باذاعة مونتكارلو والبي بي سي وصولاً الى صوت امريكا .. كان كلما نط مرة ضحكوا عليه وقال حمدي "ألن تتكلم؟ الان ستُحل عقدة لسانك " وعندما فقدوا الامل في إنتزاع اي شئ منه، سحبوه الى أحد أركان الغرفة، كان هناك صندوق يشبه جه از راديو قديم، اوصلوه بالتيار الكهربائي ولفوا سلكين عاريين على إبهامي قدميه، وعندما كبس حمدي على الزر لم يعي حجي ما الذي حدث أو ما يشعر به، ارتجف من قمة رأسه حتى اخمص قدميه، وكأنهم يمررون أسلاكاً في مسارب شرايينه وعروقه. ضاق نفَسه، وقلبه يكاد ينفجر خارجاً من خلف أضلاعه، ارتخت ساقاه وأطلق صرخة مدوية واحدة ... وعندما قطعوا التيار كان خائر القوى يتنفس بمشقة . وقبل ان يكبس حمدي على زر

الكهرباء ثانية، والألم كأي شئ آخر له حدود، لذلك فقد اخذ يستغيث بأسم الله، قال احدهم لرفيقه "هذا الكوردي يسأل عنك " وانفجروا ضاحكين ، استغاث ثانية "حباً للنبي " قال آخر "نعم كاكا.. ماذا تريد" بعدها لم يطلب منهم الرحمة حتى النهاية واقتنع أن الله والنبي وكل المقدسات الاخرى لا قيمة لها عند هؤلاء ... وهكذا مرة ثانية وثالثة، وكان شعورهم بالسعادة في تعذيب حجي يزداد مرة بعد أخرى. أخيراً فقد القدرة على المقاومة وخارت قواه تماماً وانهار فاقداً وعيه . في لحظة شعر ان واحداً يمسكه من قدميه وآخر من ذراعيه وهما يطوحان به ويقولان "واحد، اثنان، ثلاثة،..." ورمياه، أحس أن بعض الايادي تتلقفه، ومن ألم الجراح أطلق صيحة كثور يواجه سكين القصاب.

عندما استفاق، وقبل ان يتكلم أشار اليه احد السجناء ان لا يتكلم . غرفة صغيرة، خمسة درجات تحت الارض احتُجز فيها ثلاثة وعشرون شخصاً، اعتنى به السجناء وخاصة أنور الذي لُحمت فخذاه بالمكواة، تأثر حجي كثيراً عندما رأى ذلك المنظر، لذلك سأل انور ذي الستة عشر عاماً :

- لماذا؟

- لا أعرف بالضبط، لكني متأكد لو لم أكن كردياً لما فعلوا هذا بي!

مرت لحظة صمت كان انور يبدو خلالها كمن يجمع قطع زجاج متهشم وهو يفكر..

- في ذلك اليوم كان دوري في رعي الغنم، كان الوقت قبل الظهر، فجأة هبطت طائرة هليوكوبتر بالقرب من قطيع الغنم وهجم جنود

المغاوير علي كذئاب جائعة ورموني داخل الطائرة وفي دائرة مخابرات زاخو اتهموني بالتعاون مع البيشمركة، وفي اليوم الثالث عشر، هنا، في هذا القبر الضيق فتحت عيني مثلك.
كانوا يحققون معه يومياً في الثامنة صباحاً والرابعة عصراً، وفي اليوم السابع وعند نهاية التحقيق كان المحقق يقول لرفيقه " ابن الكلب، كردي عنيد"
في صباح اليوم الثامن قيدوا يديه ويدي مشعل ببعضيهما بالكلبجات واخذوهما بسيارة الجيب مثل المرات السابقة، وفي معسكر الغزلاني بالموصل، وبسبب امتلاء السجن بالنزلاء فقد احتجزوهما في الحمام وسط الحرارة والرطوبة وروائح دورة المياه القذرة. صحيح ان التحقيق معه في تلك الليلة، وللمرة الاولى، كان اسئلة فقط دون تعذيب، إلا أن وضعه لم يكن بأفضل من زاخو. الليلة الطويلة الثقيلة الوطأة لا تنتهي والعرق يتصبب جداول من مسامات جلده، صيف مدينة الموصل التي تحولُها شمس النهار الى صفيح مسجّر، وفي الليل تجعلها رطوبة دجلة قِدْر بخار وخاصة المعسكر الذي يقع على ضفاف النهر اسفل تلة البوسيف ورائحة مياه المجاري، التي تصب هناك وتجلب معها كل قذارة ومخلفات المدينة ومحطة القطار، تهب على المعسكر .
اعتقال شخص بهذه الطريقة لن تكون حاله افضل من ذلك المحكوم عليه بالاعدام وهو ينتظر مبعوث عزرائيل ! ذكّرته القطرات التي كانت تسقط من سقف الحمام عليه بكوخهم الطيني في القرية عندما كانت قطرات المطر تنزّ من سطح الدار ومن

الشرفات المتجمدة . في ذلك الجحيم كان يحلم بندف الثلج الابيض..!
كانت اللاندكروزر لا تزال تسير في الطريق الترابي وه ي تتمايل، ومنذ اجتيازهم نقطة التفتيش كان حجّي صامتاً، غارقاً في بحر أفكاره، لا يكاد يشعر بضحك أصدقائه واحاديثهم، وبجمرة السيجارة الثانية أشعل ثالثة...
قدم له سيجارة، أشعلها، التفت رأى جندياً يتحدث الكوردية، من اهالي (رواندوز). بأول سيجارة في حياته في صبيحة السابع والعشرين من حزيران توطدت صداقته وسفين الرواندوزي.
في ذلك الصباح وبذات الوسيلة والاسلوب نقلوهما الى سجن الحارثية في بغداد، أقذر معتقل وأسوأ معاملة، جحيم دانتي . في الطابور وقبل ان يفتح زبانية الانضباط قيديهما التفت حجي وقال "مشعل، نصف العراق شيعة وثل ثه كورد.. حسناً من اين يستمد هؤلاء قوتهم!؟"
في غرفة التحقيق تكررت ذات الاسئلة والاجوبة، سحبوه للداخل والكيبلات هي القانون . في الصباح والمساء كانوا يسمحون لهم بالذهاب الى الحمامات لمدة دقيقتين وتحت ضرب الكيبلات، عندما كان يرى هذا المنظر كان يصاب بالغثيان ويظن انه لم يتبق رجالٌ في الخارج سوى خاله ووالده العجوز اللذان لم يُبقيا باباً لم يطرقاه، عدا الاتاوات التي كانا يدفعانها هنا وهناك، هو لم يختار يوم الجمعة الاسود، لكنه سيق بسرعة بعد ان قيدوا يديه بالكلبجات وداروا به في جميع ردهات الجحيم وذاق عذاب النار والحديد والصعق بالكهرباء، ناهيك عن الاهانات والذل والشتائم . في الليل

كان يرى امه في المنام وكان يجري صوب حضنها، لكنه وقبل ان يهنأ بحضنها الدافئ كان صوت عواء الذئاب وضرب الكيبلات يقضي على الهدهدة والصوت الرؤوم الرقيق، كان يحن الى رؤية والدته اكثر من اي شئ آخر، هي التي علمته ان يقرأ سورة (قل هو الله احد) كل ليلة قبل ان ينام كي تحفظه السورة من الشياطين والجن لكنه بعد صفعة حمدي تركها هي الاخرى .."هؤلاء بِشرّهم وقسوتهم جعلوا ابليس المسكين ينسحب خجلاً.." كان يقول ويكرر ذلك.

كانت الريح تهز قامات الشجر في رقصة ألهية، وم ن ريف القرية يفوح أريج صدر الام بعد زخة مطر خفيفة والارض لا تزال رطبة. كانت قطرات الماء على ورق الشجر تتلألأ كحبات لؤلؤ تحت وهج اشعة الشمس . كان يقرأ آية الكرسي بصوته الطفولي ويختلط بصوت تغريد العصافير والشحارير وهو يخطو بقدميه الصغيرتين جذلاً حاملاً المصحف في كيس معلق في كتفه، وفجأة جفل واخذ يتلفت يمنة ويسرة.. اصوات رعد وأدخنة سوداء وأنين، رأى ما لم يسمعه في الف ليلة وليلة، ان يحلم الانسان واقفاً !! كان يذرع يومياً الطريق الى الكهف الذي يقيم فيه الملا وعائلته من اجل ان يتعلم قراءة سطر في القرآن، في ذلك اليوم كان العم مشختي يرعى قطيع حيوانات القرية، اجتازه ووصل سياج البستان، ملأ هدير الطائرات فضاء السماء، التفت جهة الصوت، كانت طائرتان مقاتلتان تنحدران مهاجمةً من جهة (آميدي) صوب نهر (سبنة) كان يرى ذلك، لمح دخاناً ينبعث من تحت اجنحتهما، ولما استفاق كان كل ما تبق ى من العم مشختي مكومٌ في وزرة

وبانتظار ان يهبط الظلام كي يواروه الثرى في مقبرة القرية، وهكذا ومنذ ذلك اليوم اقترنت آية الكرسي بمنظر الصواريخ في اعماق نفسه.

في الصباح قرأ الانضباط اسم مشعل "تهيأ! ستذهب الى وحدتك" ودع حجي بعد ان عانقه، وكان يتلّفت خلفه حتى و صل الباب. وبمغادرة مشعل شعر حجي بان شيئاً قد اقتطع من جسمه، ثم قرأ إسم حجي وأرسلوه مخفوراً مع مأمورَيْن في سيارة تاكسي الى وحدته.

في سجن الوحدة جهز له الجنود الكورد كل ما يحتاجه، وبعد الاستحمام وتناول عشاء جيد، استلقى في فراش نظيف، وللمرة الاولى منذ ان خرج من قريتهم نام ملء جفونه.

في الصباح قدموه أمامَ آمر الوحدة العميد خلدون، وبعد عدة اسئلة واجوبة قال:

- انا اصدقك، ولكن نحن مقيدون بالتعليمات العسكرية.

اعادوه للسجن... مرت سبعة شهور وستة وعشرون يوماً منذ أن اعتقل، كانوا يقدموه امام العميد مرة كل شهر، ولكن اج وبته ظلت كما هي دون زيادة او نقصان، وولّد هذا الامر هاجساً لديه انه اصبح كجرّة تحت الاختبار هل ستنضح ماءاً أو لا!

في يوم ١٢-١٢-١٩٨٢ ونتيجة للهروب الجماعي للجنود الكورد من جبهات محرقة القادسية فقد أُعلن عفو عام عنهم وتسريحهم من الخدمة العسكرية، واسرع الجنود الكورد يجهزون أوراق معاملاتهم في وحداتهم، وكان الجنود العرب يشتمون القيادة ويتكلمون علانية عن الرئيس ببذاءة، وبقدر ما كانوا مستائين من

الحرب فان تسريح الكورد زاد من استيائهم وحقدهم عليهم . كان الاصدقاء يزورونه في السجن ويودعونه، وكانت تلك الايام هي الاطول والاثقل وطأة والاكثر ازعاجاً، لو استثنينا ايام التعذيب . شعر بالوحدة واليأس، كان يذرع ارض السجن جيئة وذهاباً وهو يقول مع نفسه " القبج جميل وهو مع سربه"

رحل جميع المتسرحين الى كوردستان حيث بيوتهم وعوائلهم وبقي هو وحيداً في القفص مع الغربان الفاجرة . لم يعرف في أيّ حين من بعد منتصف تلك الليلة نام، لكنه استفاق فجأة على اصوات ضجيج السجناء وضربات الكيبل والتصفيق والتهليل، نظر بدهشةِ من يرى شيئاً لكنه لا يصدق، كيبلات وزغاريد ! شيئان على طرفي نقيض. فكر لأول وهلة بان الحرب توقفت، او ربما صدر قرار عفو عام من تلك القرار ات التي يعلنها الرئيس للسجناء، وبعربيته الركيكة قال لمجاوره:

- هيسم، شنو هازا!؟

وشرح له هيثم القصة اكثر من مرة لكنه كان يعاود طرح السؤال لانه لم يكن يفهم ما يقوله، أخيراً إضطر هيثم ان يكوّر اصبعي السبابة والابهام في يده اليسرى على شكل حلقة وأخذ يُدخل سبابته اليمنى فيها ويخرجها في حركة فاضحة، زاغت عيناه:

- استغفر الله... مسلمان، عربيان وكلاهما رجل!! وضع كفيه على رأسه وأردف... يأجوج ومأجوج والتتار يـ ..... امهاتكم!

عندما أوصلوا الاثنين الى الباب ارتفعت الزغاريد وكان أحدهم يقول " افسحوا الطريق للعرسان..."

اشرقت شمس الصباح على ارض الله والحفلة لم تنتهي بعد . انفتح الباب ودخل جنديان عوقبا بالسجن ثلاثة أيام بسبب مرور يوم واحد على انقضاء مهلة اجازتيهما... دخلا وجلسا قرب بعضيهما، كان احدهما غاضباً جداً وهو يقول لصاحبه "العاهرة التي تفتخر بأصلها الشامي، ماذا كان سيحد ث لو انها كانت إستلقت تحت كردي؟ كنتُ اليوم تحررت من هذه العبودية " تألم حجي كثيراً من كلامه وأدرك حجم المأساة التي يعيشها العراقيون.

وبعد مرور سبعة واربعون يوماً وبتاريخ ٢٩-١-١٩٨٣ احالوه الى المحكمة العسكرية الدائمية الثانية وكان مقرها في احدى الدور، وعندما وصل كانت حديقتها ملآى بالضباط من جميع الرتب، عقداء، عمداء، مقدمين، رواد، ونقباء .... فقط هو وواحد من اهالي البصرة كانا من الجنود . في باب المحكمة وقف انضباط ينادي بالاسماء، وقبل ان يدخل اي واحد ينادي بإسمه كان يُجري عليه تفتيشاً دقيقا ثم ينزع عنه نطاقه العس كري، وكان الجميع في الخارج يسمعون القرارات "قررت المحكمة الاعدام رمياً بالرصاص حتى الموت مع وقف التنفيذ " عدا ذلك الجندي العاثر الحظ فقد كان الحكم مع التنفيذ، بهت لونه واخذ يرتعش وقبل ان ينهار تلقفه المأموران من ذراعيه وسحباه للخارج... لحظتها صاح الانضباط بصوته الحاد "حجّي رمضان عَبدال " وبقدر ما كان صدره ضيقاً ويريد أن يعرف شيئاً عن مصيره بقدر ما داهمه الخوف وسيطر على كل جوارحه واحاسيسه عندما حان دوره، عند الباب نزع الانضباط عنه نطاقه بعد ان مرر يديه يتحسس كل جسمه، لحظات يعجز اللسان عن وصفها . ادخلوه قفص الاتهام

بالقرب من صف هيئة الحكام العسكريين المتشكلة من سبعة ضباط، نظر الجالس في الوسط وهو مقدم ركن ورئيس الجلسة، برأسه الاصلع المنتصب على رقبة خنزيرية، في أوراقه وقال:
- قل الحقيقة وإلا ستعاقب بالسجن لمدة خمسة عشر عاماً.
لم يعرف في تلك اللحظة لماذا، ولكنه تذكر فجأة صفعة حمدي، فرفع يده يتحسس خده.
- انت مصمم على أقوالك... قال القاضي
في رحلته تلك رأى حجي الوجه المظلم والقبيح للعراق، لذلك قرر في دخيلة نفسه ان يصر على أقواله حتى النهاية لأن أيّ تغيير فيها سيبدو كثوب تم ترقيعه.
- سيدي، الحقيقة هي ما قلته حتى الان ولي س لدي شيئاً آخر، والقرار لسيادتكم والمحكمة ... قال ذلك بلغته الكوردية وقام المترجم بنقلها الى العربية.
صحيح ليس هناك تعذيب، ولكن الخوف ملأ منه حتى نخاعَ العظم، كان نائب الضابط يدون اقواله، قال القاضي دون ان يرفع عينيه عنه:
- قررت المحكمة حبس حجي رمضان عبدال خمسة عشر عاماً.
جمد الدم في عروقه... خمسة عشر عاماً بسبب الاجازة ! هل هذا حلم او حقيقة!؟ عند الباب كان الانضباط واقفاً كعمود رخامي من عصر الرومان، وفجأة جاء صوت الحاكم كالبرق "كما كنت !" تحرك العمود وصرخ فيه "يا ولّ إرجع الى القفص" كان قد نسي الايعازات العسكرية، التفت القاضي الى الضباط على يمينه ويساره يشاورهم، ورغم أن الضابط الجالس الى يسار الحاكم كان

يتحدث اليه بصوت منخفض إلا أن قُرب قفصِ الاتهام من منصة الحكام جعلت حجي يسمع الرائد وهو يقول للحاكم "إجازته صحيحة وقرار العفو يشمله " هز الحاكم رأسه الذي يشبه ق رعة "أعرف، لكني أودّ ترهيبه" وكلاعبي لعبة المحيبس، قرب الحكام رؤوسهم من بعضها...

- قررت المحكمة حبسك لمدة سبعة اشهر حبساً خفيفاً.

اجتاحته قشعريرة باردة، أدى التحية العسكرية ودار الى الخلف واتجه صوب الباب ثانية، ومع سماعه صوت الانضباط، ظن انه سيعود الى الق فص كرة اخرى، وعندما التفت راى نطاقه العسكري يتأرجح في يد الانضباط ، تنهد بعمق وقال وهو يشد نطاقه عند الخروج "إبن القحبة الموشومة، كادت مرارتي تنفقع رعباً"

كان جالساً في احدى مقاهي منطقة العلاوي ببغداد يحرك الشاي بالملعقة، نظر الى الساعة كانت تشير الى الحاد ية عشرة ليلاً، مد يده الى جيبه، اخرج كتاب التسريح من الخدمة العسكرية، تناول آخر رشفة من الشاي وأعاد الخطاب الى جيبه واخذ يطبطب عليه كأنه في شك من ذلك... كان هناك مئات الجنود يروحون ويجيئون في المرآب، حراس البوبة الشرقية نائمون بجانب الحيطان وحقائبهم تحت رؤ وسهم. على شاشة التلفزيون الكبير الذي كتب فوقه (هدية الرئيس القائد) كانت تبدو صفوف النساء طويلة بطول مسبحة جده ذات التسعة وتسعين حبة، جده الذي كان يقول عنها "من يذكر أسماء الله الحسنى بعدد حبات هذه المسبحة فانه

سيتطهر من ذنوبه ولو كانت بثقل جبل أُحد، وسينال قصراً من الدرّ والياقوت في الفردوس وسبعين حورية ثواباً له".
في طفولتي كنت اعتقد ان الحوريات عرائس اطفال من النايلون . الايمان شئ غريب وممتع في آن واحد ... قتلٌ، نهب، سرقة وارتشاء، وفي النهاية صلاةٌ واستغفار على عجل ! يا لهنائك يا جدي..! قال في نفسه وابتسم.
على الشاشة، طلع البدر من خلف الغيوم، هلّ من وراء الباب الكبيرة كظهور المسيح بين حواريه . رأسه مرفوع وابتسامة عريضة، بسِعةِ رحمة الله وعمق حضارة الصحراء وغزارة دماء الشهداء، ترتسم على شفتيه وقد توشح بوسام الرافدين ونجمة النصر ترقد على صدره ... إستُقبل بالهتا ف والتصفيق وبصوت واحد "بالروح بالدم نفديك يا ..." لوح بيده المباركة وجلس تحت شعار النسر الايوبي.
بوقوف اللاندكروزر انتبه وكأنه استفاق من نوم عميق وصوت يشبه النشيد ينبعث من الراديو "بالروح بالدم نفديك يا ..." مد كنعان يده الى الراديو واخفض صوته ثم التفت الى خالد:
- انظر الى الطريق... مائة أُمنية في فم كلب سلوقي جائع ليس لها قيمة درهم.
كان يخطب بصوته الجهوري المميز "نحن بعون الله منتصرين، يكفيكم فخراً انكم تصديتم لثلاث وثلاثين دولة ..." وباطفائه الراديو، أنهى كنعان الخطاب وهو يقول:
- منتصر! في الحقيقة كان الهروب من المحافظة التاسعة عشرة قتالاً لا مثيل له..!

- ظلمهم واستبدادهم وتعصبهم القومي أيقضنا نحن الكورد. صوت النساء ارجعني الى ذكريات السجن عندما كن يأتين للزيارة، كان أفراد الانضباط العسكري يسوقوهم بالكيبلات والكلام البذئ الى باحة السجن.

- هل تعرف كنعان ... لقد كانوا يستهزؤن كثيراً باسمي ... حجّي رَ.. مَ.. ضان، في تلك الليلة في سجن الحارثية عندما حلمت وانا واقف عاهدت نفسي إذا جاء يوم ورزقت بأطفال فانني لن أُطلق عليهم غير اسماءٍ كردية، واذا سنحت الفرصة سأغير اسمي ايضاً.

قال كنعان وكأنه لا يصدق ما سمعته اذناه:

- ماذا! تبدل اسمك ولديك اربعة اطفال؟

- نعم، الندم في منتصف الطريق افضل من الاستمرار فيه.

- وماذا ستجعل اسمك ان شاء الله؟

- ماذا.. ماذا.. شيركو، عم السلطان الكبير . في الصباح سانشر اعلاناً في الصحيفة، كان يجب ان افعل ذلك قبل عدة سنوات ... واخذ يكرر، شيركو، شيركو ، الكورد مدينون له ببقاء صلاح الدين كردياً وإلا لكانوا منذ زمن بعيد قد مهروا جبينه الناصع ببصمة قريشية كما مهروا جباه الاف آخرين!!

- يجب ان نبدأ من الصفر ... قال كنعان بابتسامة باردة ووضع قدمه اليسرى فوق اطار اللاندكروزر، تفحص ساقه الاصطناعية لئلا تكون ارتخ ت، ثم أردف .. أتعرفْ متى شعرتُ بالندم تماماً لانني ضحيت مجاناً بهذه الساق من أجل الامة العربية؟

أشعل حجي سيجارة واتكأ بمرفقه على مقدمة السيارة دون ان يجيب على كنعان . كان خالد في قمة التلة يراقب الطريق لئلا يكون أزلام النظام قد نصبوا كميناً ... بانَ شبحه عندم ا كان في طريق العودة.

- عندما هبت قوات التحالف لنجدتنا وإغاثتِنا أيقنتُ تماماً أن إخواننا متجردون من كل الصفات الانسانية .. بعد ثلاثة عشر يوماً من المسير الشاق في الجبال الوعرة بمساعدة عكازين تحت ابطي وحِملٌ إضافي على ظهري، كولستاني، ابنتي التي كانت في ربيعها الرابع وهي كالبرعم المتفتح . ثلاثة عشر يوماً من البرد والتعب والجوع، لم تشرق فيها الشمس علينا . كنا في اليوم الثامن عندما التهبت ساقي وسلخت العكازات ما تحت ابطي، وعندما كانت الامطار تتوقف كنا نسارع جميعاً لأشعال النار وقبل ان تَدفأ أجسامُنا يقضي عليها الم طر تارة اخرى . الاجساد أنهكها التعب، ضاقت الصدور وبلغت القلوب الحناجر . كانت الامطار تهطل علينا وهي مشبعة بالاحزان واليأس والقنوط، كنا نتجه صوب مصير مجهول لاننا كنا نعرف أن الذي يطاردنا أسوأ بكثير وأكبر من الموت... عار وأنفال. امتلأت بطون وأودية الجبال بنا والموت يبتلع ضحاياه من الاطفال والعجائز بسهولة كما كان الضباب يبتلع كل شئ، ناهيك عن ضحايا الالغام، أولاد الكلبة حولوا كوردستان من الشمال الى الجنوب الى حقل الغام. تزحلق احدهم وكان يمشي أمامي وهو يحمل طفلاً على كتفه ووقع في الوحل وعندما نهض كانت حمرة الوحل تـغطي الجبّة والعمامة ولحيته البيضاء، تطلع الى السماء .. بعد ان طوّح بعمامته البيضاء في نهر الزاب من

حرقة قلبه وهو يرى حال زوجته وأطفاله، ثم رفع يديه صوب السماء وجعل يصرخ بألم "ألا يكفي كل أولئك ؟ كفّ أنت بلاءك عنا..." وعبرنا على الصراط المستقيم، وعندما وصلنا الى مدخل الوادي المطل على مدينة (جَلي) اعتقدناه باب الجنة وهناك صبت السماء غضبتها الاخيرة بموجة من المطر الممزوج بالثلج على رؤوس المشردين الذين كانوا، كالدجاج الذي يحمي صيصانه تحت جناحيه، يحاولون بأية وسيلة متاحة بين ايديهم حماية اطفالهم من المطر والبرد ا لقارص كالغريق الذي يتشبث بقشة . كانت كولستان تستغيث بي "بابا.. بابا" وكانت تلك آخر كلماتها، لا يزال صداها يرن في اذني حتى اللحظة، لم يرجع احد من هناك دون ان يواري الثرى قطعة من نفسه.

- الطريق مفتوح.. صاح خالد.

في السيارة كان ئيسف ينظر الى سدة الموصل وهو مفع م بآمال كبيرة.. استطال ظل السيارة جهة الشرق.

في الوقت عينه وعند مفترق الشوارع الواقع في منتصف السوق بدهوك، كان آزاد وكوفان يشقان طريقهما بصعوبة وسط الزحام، في جانب الطريق إلتمّ الناس كخلية نحل على أحد الصيادين وهو ينادي "إثنان بخمسة وخمسين.."

- أسواق العالم بمدى تطورها وأسواقنا بأعداد الناس، انظُرْ لو رششتَ كف حنطة فوق رؤوسهم الان لما وقع منه شئ على الارض! قال كوفان ضاحكاً

اقترب الاثنان، كان هناك رجل يحمل في كلتا يديه زوجين من طيور القبج مقيدة الارجل، مذبوحة ورؤوسها تتدلى الى الاسفل،

وآخر يقيّم ثمنها وقد لفَّ جذعه من وسطه حتى تحت إبطيه بنطاق قماشي وزينه بمسدس.
- أعطني هذا الزوج... كان يعد النقود وهو يقول.. لحمُها دواء!
مسد آزاد على ظهرها ونظر الى كوفان:
- أعداد المصائد والفخاخ وشباك الصيد المنصوبة في كوردستان بقدر أعداد ألغام فالمار، آه.. جعلوا لحمك دواءاً وأفضلَ ثمنٍ مقابل تعويذة!
فتحا طريقاً لهما بين صناديق صباغي الاحذية الصغاروعربات الباعة والاطفال والمراهقين الذين يعرضون للبيع السجائر والمكسرات... وفي الشارع العام قال لصاحبه:
- آزاد، فلنشرب هنا عصيراً.
صف من المحلات المغلفة بالمرمر والمشكلة بهندسة جميلة جذابة، وأنواع من عصائر الفواكه مصفوفة بعناية .. رمان، برتقال، موز، جوزالهند، تين وتوت احمر.
- كوكتيل رمان وبرتقال.
- زبيب..
قال آزاد وهو ينظر الى الحائط المزين بصور القِبلة والآيات الكريمة وشجرة الانبياء، فخذُ عجل وخليةُ عسل وقد نقش عليهما لفظ الجلالة، إضافةالى بعض الحكم والابيات الشعرية المخطوطة بالعربية حول الموت وعذاب القبر ... شرب العصير وهو يهز رأسه.

- كلها مياه مصبوغة ... نؤدي الصلاة ونأخذ الرشوة، نصوم ونكذب، أكثر عروبةً من العرب، ينصحون الناس بالعمل لآخرتهم وللجنة وهم يقبضون على الدنيا بالايدي والنواجذ.

في سوق (كلكتا) كما كان يحلو لآزاد أن يسميه، وهو كان كذلك فعلاً. التخوت الخشبية مركونة جنب بعضها كيفما اتفق والمكان يعج بالناس.. فواكه وخضراوات وانواع من الاعشاب التي ما عاد الناس يتذكر أسماءها .. أصوات الباعة والناس المتبضعين تختلط ببعضها كنباتات قاع ا لبحر عندما يضربها التيار، أكتاف النساء والرجال تتصادم ببعضها، فيما بعضهم يمشي مستديراً الى جنب كي يعبر خلال الزحام، فجأة توقف السير واحتشد الناس وراء بعضهم كطابور سيارات أمام أضوية المرور ... صاح احدهم وهو يشير بيده:

- يا عم، هل هذا مكان تبادل التحايا والسؤ ال عن الصحة والاحوال؟

كان ثمة شاب يقف خلف تختٍ فوقه أكوام طماطة يرتبها بنسق جميل على شكل هرم تُذكّر المرء بأهرامات الفراعنة وهو ينادي:

- لا تعبر، لا تعبر... انظر اليها ولا تشتر، طماطة منطقة (كَلَك).

ارتطمت به إمرأة من أولئك الذين لم يطالهم الحصار الاقتصادي وهي تحاول فتح طريق لها

- تخلصنا من العرب ولم نتخلص من العِبيّ!!

- ليت المشكلة كانت في العباءة فقط، نحن نفكر بالعربي أيضاً ..!

قال آزاد وهو يتلفت حواليه كأنه يبحث عن شخص بعينه.

- هل اصابكم انتم الكتّاب أيضا جرب البعران؟

- احدى سمات الغزو الفكري!
قطع البائع حديثهما:
- كم كيلواً تريد ان أوزن لك؟
فتح آزاد كلتا كفيه امام صدره وقال:
- صاحبي لديه دار حضانة، اما أنا فبمفردي!
- ثلاثة كيلوغرامات بخمسة دنانير ! حسنا، كيلوين من الطماطة المنتقاة؟
- ذلك لا يصرّف لي... واشاح البائع الشاب بوجهه
- ثلاثة كيلوات تصرّف وكيلوين لا تصرّف!؟ قال كوفان متعجباً.
سحبه آزاد من ذراعه وخلل الحشد الهائل فتحا طريقهما، وقفا امام طاولة إنحنى فوقها عجوز يفرز البطاطا، رفع رأسه وقال:
- تفضلا عمو؟!
- انا شقيق نسرين، جاءت الى هنا قبل أيام.. ألم ترها؟
- لا.. في الحقيقة لم أرها منذ فترة.
عند الخروج، سلم احدهم على كوفان:
- كيف الحال مولانا؟
- انت ما ينقصني .. انا لا أتمكن من اعالة نفسي، حتى أُعيل خدماً!!
مرت امرأة وابنتها السفور التي حاولت كتم ضحكتها بظهر يدها، لكن امها نهرتها
- يا حسرتي على هؤلاء الرجال.. كم يُرثى لحالهم.

في سوق المدينة شاهدا رجلاً وم عه شبهُ قردةٍ سمراء الوجه شعرها يبدو مصبوغاً بالاصفر، خلفهما يمشي عدد من الحراس المسلحين... لم يتحمل كوفان:

- لأول مرة أرى محل صياغة يمشي على قدميه!

- اذا كان رب البيت بالدف ناقرٌ...

سارا وكتفاهما متلاصقان وهما يذرعان الشارع العام بخطوات متماهلة، مرا بجانب بناية من اربعة طوابق كتب فوق بوابتها (المُلك لله) وعلى اخرى كتب (هذا من فضل ربي) رفع آزاد رأسه صوب السماء:

- الى متى ستظل الورقةَ الرابحة؟

كان المارة قد تركوا الرصيف لأصحاب الدكاكين المتنقلة، ودخان عوادم السيارات وروائح المطاعم والعرق المتصبب من الاجساد تختلط بأصوات الاغاني التي لا يفهمها احد والالحان النشاز التي كانت تنبعث من كل حدب وصوب . كان كلما استطالت ظلال الابنية والناس على الارض قلت أعداد المارة في السوق، وقبل ان تملأ النجوم صفحة السماء الصافية كانت المدينة تأوي الى النوم.

٦

في الطابق الثا ني من المبنى المقابل للوادي، والمشرف على البساتين، جلس اربعة اشخاص خلف واجهة زجاجية وهم مشغولون بلعب القمار، كان درويش يخلط الاوراق وبيد خفيفة الحركة يوزعها على اللاعبين دون ان يضع سيجارة الـ (واف) الطويلة من بين شفتيه، دخان السجائر حوّل الكازينو الى ما يش به قمة جبلية غارقة في الضباب.

- ئيسف، منذ متى انتقلتم الى حيّنا؟

- حيكم! ما زلنا في مكاننا في حي (الناعور).

- أظنني رأيتُ امرأتك صباح اليوم ... وكان يرتب الاوراق في يده.

- ماذا.. هذا الصباح.. اين؟ قال ذلك ووضع الاوراق على الطاولة بعد ان نهض واقفاً على قدميه.

- ما الذي دهاك؟ في الصباح الباكر عندما كنت في طريقي الى عملي لمحتها بالقرب من الدكان الواقع قرب بيتنا، ولست متيقناً لأن النساء تحت العباءة يتشابهن...

قبل ان ينهي كلامه كان ئيسف قد خرج دون ان يلتفت وراءه أو أن يعبأ بأحد.

- سيد ابراهيم.. ما الذي دهاه؟ ! قال درويش للشخص الذي كان يجلس قبالته وقد تحولت عيناه في رأسه من شدة الغضب الى

جمرتين حمراوين، رمى الاوراق من يده وتناول ورقةَ لفِّ السجائر:

- ايها البائس.. بطنك تتحمل طنجرة من شوربة العدس في هذا الصيف القائظ ولا تستطيع ان تكتم حديثاً؟ ئيسف هذا الذي جيبه أنظف دوماً من مؤخرة الملاّ، كانت جيوبه اليوم ملآى وقد أفلت من يدي!

- كيف! ألا تعلم ان زوجته مفقودة منذ عدة ايام؟ قال سمو بانزعاج وترك سيد ابراهيم ودرويش لوحديهما.

في عصر ذلك اليوم وحتى غروب الشمس حيث التفّت المدينة، ما خلا البيوت التي كان لديهم مولدات كهربائية، بعباءة داكنة وغرقت في صمتِ عصورِ الاحتلال العثماني، كان ئيسف كالقطة التي تربصت بفريستها، يراقب صف الدكاكين والشارع . وفي صباح اليوم التالي وقف عند الناصية واشعل سيجارة، لمح امرأة تخرج من أحد الدكاكين، من الصعب أن يتعرف المرء على امرأة وهي متشحة بالعباءة لك نه تعرف عليها من مشيتها ... تبعها، استدارت عند المنعطف الثاني وعند رابع دار فتحت الباب . اسرع الخطى، رفع رأسه وراح يتلصص من فوق الباب، لمحها من خلال النافذة وهي تنزع عباءتها، وتأكد انها هي. رفع يده وأزاحها الى الخلف ينوي قرع الباب ولكن قوة خفية جمدت يده . داه مته فكرة خبيثة، وكنصّاب نجح في خُدعته، ابتسم وانحدر في الزقاق بخطوات سريعة وخفيفة.

كانت نسرين مشغولة باعداد مائدة الفطور عندما نادت:

- كولجن أسرعي، سوف تتأخرين.

هنا قُرع الباب، وعندما فتحته رأت شرطياً واقفاً وسيارة شرطة بداخلها عنصران آخران.
- نعم أخي ماذا تريدون؟
- انت نسرين شاهين؟
وبضيق صدرٍ وامتعاضِ شخصٍ رأى نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام دائنه البخيل وقد فات أوان الدفع قالت:
- نعم انا نسرين.
- ارجو ان تتفضلي معنا.. وأبرز لها أمر الاستدعاء.
- حسنا، فلأجلب عباءتي.
كانت طفلتها الصغيرة التي تعلمت المشي للتو قد تبعتها الى الباب، حملتها على كتفها والتقطت عباءتها المعلقة وراء الباب:
- كولجن، انا ذاهبة.
خرجت كولجن وهي ترتدي روب المنزل من الغرفة الخلفية، وعندما رأت الشرطي جفلت، صعدت نسرين الى السيارة وكانت كولجن تقف بجوار نافذتها:
- سأغير ملابسي وألحق بك.
سارت السيارة في الزقاق وكان الجميع، من نساء واطفال وحتى المارة الذين تصادف وجودهم عند الناصية، ينظرون بعيون ملؤها التساؤل.
كانت بناية مركز الشرطة تبدو كقلعة عسكرية صغيرة، مبنية بالحجر الصخري، لها باب ضخم ذو مصراعين، وعلى السطح برجين للحراسة وسط ميدان واسع، وهي تقع في حي (بروشكي)، أكبر حي في المدينة بعدد ساكنيه، وبالخدمات المقدمة له قرية

منسية، تراب وغبار في الصيف، ومياه وأوحال في الشتاء، في تلك الجنة التي تمر فيها الانهار ... كان الماء يُدفع الى الحي بمضخةِ دفعٍ وضعت مقابل متوسطة (جرا) عن طريق شبكةِ توزيع مياهٍ أكثر تعقيداً من القضية الكوردية.. وطلباً للماء المعتدل البرودة في الصيف لأستعماله مع الثلج، كانت النسوة والاطفال يأتون الى موقع المضخة وخاصة أوقات العصر، يضعون صفائحهم وترامس الماء في طابور خلف الباب حيث جرّوا من المضخة خرطوم ماء .. كانوا يعبرون الشارع كالنمل وجيلٌ من الشباب فاقدي القيم يشتمونهم بالصفير وزمور سياراتهم ... أنهارٌ وأراض زراعية فوق بحار من البترول في بلد منحته الطبيعة كل شئ ولكن داء الصحراء، تحت لهيب الشمس وحرارة الرمال، كان يستثير دوماً الدودة في رأس عبدالله المجاهد....

في غرفة الضابط وبعد أداء التحية:

- سيدي، لقد أحضرناها.

دخلت نسرين، لمحت ئيسف فأشاحت بوجهها، قال رائد الشرطة ذي الملامح الشابة والشعر الاصهب وهو جالس وراء الطاولة:

- تفضلي نسرين اجلسي...

ثم التفت الى شابين واقفين امامه:

- النظام وضمن اطار حصاره الاقتصادي قطع التيار الكهربائي عن كوردستان ونحن نقترب من أربعينية الصيف في هذه السنة الجافة وأمثالكم يستغلون هذه الظروف لنهب الناس، اذا كنتم قد فقدتم الحس القومي، أليس لديكم حس انساني ايضاً، تبيعون قالب الثلج بأربعين ديناراً؟

- سيدي، الثلج شحيح في الموصل أيضاً، ليلة امس اشترينا انتاجَ معملين من الثلج بضعف سعره إضافة الى اجرة الشاحنة ناهيك عن أتاوات مفارز الرفاق والفدائيين ورشوة السيطرات ... والطامة الكبرى هي مفرزة جماركنا، واذا لم تصدق ... ومد يده الى جيبه واخرج إيصال الجمارك ووضعه على الطاولة.

نظر الضابط الى الورقة وتطلع في الشاب الذي يرتدي تيشيرتاً من البالات وينتعل خُفاً، ثم قال للشرطي:

- خذوهما الى النقيب هوكر، ثم التفت الى نسرين وأردف، هل هذا زوجك؟

السؤال البسيط إحتبست إجابته كشوكة في زردومها ... هزت رأسها وتمتمت بشفيها:

- نعم.
- كم يوماً مر مذ خرجت من البيت وأين كنت؟
- اليوم كان الثامن وكنت في بيت كولجن.
- من يعيش معها؟
- والدها الحاج مصطفى وطفلاها
- وزوجها؟!
- هاجر الى أوروبا قبل عدة أشهر.
- ألم تذهبي الى مكان آخر عدا بيت كولجن؟
- نعم، الى الدكان حيث كنت أشتري الاحتياجات اليومية.
- وأين كانت كولجن؟
- سافرت الى بغداد، إبنها مريض.

- هل تعرفين ما هو جزاء المرأة التي تترك بيت زوجها لمدة ثمانية أيام، دون إذن، في الشريعة وماذا يقول الناس عنها ومهما كانت الاسباب؟

- نعم أعرف، انا لا أذهب الى صلاة الجمعة لكني أسمع الخطبة وموضوعها الرئيسي المثلث الملعون، الشيطان والمرأة والمال، الزوجة التي تخرج عن طوع زوجها عقابها يوم القيامة، عدا عذاب القبر، أن تعلق من شعرها وكذلك تكوى بالنار والحديد، الله والملائكة يمطرونها باللعنات، عدا أن الناس يقولون عنها انها عاهرة. تهديد ووعيد السموات ولوم اللائمين وعار الدنيا والآخرة، كل ذلك بسبب كروموسوم غير اختياري، اضافة الى انها يجب ان تُضرب وتحبس في البيت من قبل زوجها، لها نصف ما للرجل من حقوق، وعقوبتها عشرة امثال عقوبته في شريعة السماء او هكذا تم تفسيرها، الزواج عقد شراء لذلك عليها ان تنسى كلمة لا.

كان الضابط يصغي بذهول وهو لا يصدق أذنيه ويقول في نفسه "هل هناك امرأة، عدا الجرأة، متنورة هكذا؟" سألها:

- ماذا درست؟

- القرآن والثاني المتوسط.

شبك الضابط أصابع يديه ووضع الابهامين تحت ذقنه وهو يفكر "الثاني المتوسط وقراءة القرآن .. هذا لا يكفي، هنالك العديد من الحيطان مزينة بالشهادات!"

عادت به الذكريات الى تلك السنة التي تخرج فيها من الكلية وكان في البيت يقول لوالده:

- ابي، كما أحل الله فقد حرّم أيضاً، عزيزة إبنتُك وهي تزعل وتترك بيت زوجها للمرة العاشرة وربما العشرين..
لكن الوالد كان يقول بصوت عال وغاضب:
- والناس!؟
لا يزال صدى كلام المرحوم يطن في أذنيه "والناس.. والناس.. والناس"
(الزواج علاقة مقدسة، حقوق وواجبات، ليست وجاهة وسيادة، كل رسالات السماء ومحاولات المصلحين كانت في سبيل الانسان، وهو هدف الحياة . وبدلا من ان تكون جسراً نعبر عليه ونتخلص من ذل هذه الحياة والظلم والضياع والفوضى، فان الذين يعتبرون انفسهم خلفاء الله وورثة الانبياء قد أصبحوا سَدَنة وأقاموا الجسر على ظهورنا المنحنية الجريحة بعد ان أعموا عيوننا) كان الضابط يفكر وهو يحدث نفسه . التفت الى ئيسف، الذي نكس رأسه، وقال:
- صحيح تبقى المرأة انثى، ولكن ليس كل ذكرٍ رجلاً !... لكن ئيسف لم يحرك ساكناً.
التفت الى نسرين، كانت ابتسامة ترت سم على شفتيها الرقيقتين المكتئبتين، ومض في عينيها شعاع امل لكنه سرعان ما خبا...
- اذا تحدثت الزوجة بلا استحياء وبكى الرجل ذلك يعني انه لم يبق شئ يأسفان عليه... قال الضابط ودخل شرطي وأدى التحية:
- جاءت امرأة تسأل عن نسرين.
- دعوها تدخل.
ودخلت كولجن..سأل الضابط نسرين:

- هل هذه كولجن؟
- نعم
- تفضلي بالجلوس.. كولجن، كيف آويت نسرين دون ان تُعلمي احداً، ألا تدركين ان هذه مسؤولية؟
- أعلمْ، ولكن سفرنا الى بغداد لم يكن مخططاً له، ونسرين لم تأتي الى بيتي، انا التي ذهبت الى بيتهم . انت ترى ما زال الوقت صباحاً والمدينة تغلي كقدر، وبسبب انقطاع التيار الكهربائي والماء غير النظيف وقلة الادوية فان ردهات المستشفى وحدها لا تكفي لأستقبال كل مرضى الاسهال من الاطفال . في تلك الليلة كانت ابنتي مريضة جداً، اخذتها الى الطبيب المناوب وانتظرت في الطابور حتى حان دورنا . تأخر الليل وانقطعت باصات النقل الداخلي ولم أشأ استئجار تاكسي بمفردي، المرأة الكوردية غير المتعلمة في الريف حرة وفي المدينة ليست اكثر من جارية ! فكرتُ ببيت نسرين الواقع في الجهة الثانية من الشارع حيث يمكن ان يوصلني ئيسف الى بيتنا . فتحتْ ابنة صاحب الدار لي الباب، كان نور القنديل في غرفة نسرين خابياً، مددت يدي الى الباب فانفتح، كانت نسرين جالسة تضع يديها على ركبتيها وقد دسّت رأسها بين كفيها، رفعت رأسها مع انفتاح الباب وكانت في حالة نفسية يرثى لها، رائحة النفط تخنق أجواء الغرفة، كانت تبدو كالمجنونة وعندما رأتني لم تكن تقدر حتى على البكاء وبالكاد قالت:
- لم استطع.. لم استطع..

كانت عبوة النفط فارغة واربعـة أعواد شخاط احترقت، في لحظة من التشاؤم واليأس، حتى نهاياتها . كانت طفلتها قد استيقظت من النوم وهي تبكي. الحياة حلوة ولكن فلذة الكبد أغلى. بكاء الطفلة لم يدع لها الفرصة. كان منظر البيت وهيأتها يشيان بأن الانتحار كان آخرَ باب تلجأ اليه، لأن الانتحار لا يتطلب شجاعة كبيرة بل يأساً قاضياً. لم يسعني تركها في تلك الحال، لذلك اخذتها معي الى بيتنا وفي الصباح الباكر سافرت الى الموصل.

- نعم، جئتُ الى مقر المنظمة التي تعملان فيها من اجل نسرين وعلمتُ بسفرك الى الموصل.. هل تسافرين دوماً الى هناك؟

- يجب ان يُحقن ابني مرة كل شهر بأبرة فينكريستين في مستشفى الخنساء بالموصل، في ذلك اليوم لم تكن هناك حقن متوفرة فارسلوني مع اضبارة ابني جيافان وبقية الاوراق الى مركز الطب الذري، هناك ايضاً لم نعثر على ال حقنة، رجعت الى المستشفى فقال لي الطبيب "يجب ان تذهبي الى المختبر المركزي في مدينة الطب ببغداد"

- ماذا لديه ابنك؟

- داء العروبة..ثم أسرعت وأردفت.. اللوكيميا

- أيُّ داء! قال الضابط مندهشاً.

- بسبب السلاح الكيمياوي الذي استُعمل على نطاق واسع ضد ايران في حرب ا لثماني سنوات وفي الانفال السيئة الصيت ضد الكورد فان هذا المرض منتشر في تلك المنطقتين، العرب الشيعة يقولون انهم لم يعرفوا مرضاً كهذا قبل حكم البعثيين لذلك يطلقون عليه داء العروبة.

- ماذا تشتغلين في المنظمة؟
- على الكومبيوتر.
- ونسرين؟
- عاملة تنظيف.
- تأخركِ كان له أثر كبير ... انا أيضاً خريج جامعة بغداد، بالمناسبة كيف كانت؟
- الحروب أحالت عاصمة الرشيد الى مدينة اشباح .. مزبلة كبيرة، على الاقل الاماكن التي زرتها، ولكن هناك اماكن اخرى ترتبط بالسلطة فانها عالم آخر، يقال انها كقصور العباسيين ولكن بتكنلوجيا حديثة.

كان الضابط يصغي وهو يحاول ان يرسم في مخيلته صورة للمدينة التي تغلي في داخلها تحت لهيب الشمس والتي بنيت على سبع وثلاثين طبقة من الجماجم ..(أيتها الغيمة أمطري حيثما شئت فان خراجك عائد لي) وهذا الاخير قد ركل الجميع على مؤخراتهم، هم كانوا يبيعون الاناث ويُخصون الذكور، وهذا يدفن الناس أحياء.

- أيام عدة لجلب أبرة واحدة!
- وصلنا بغداد في الليل ومستشفى الطب الذري في الصباح الباكر، لكن دون فائدة، لا توجد حقن .. صادفنا رجل من مشردي كركوك ومعه حفيده وعرف من كلامنا اننا كورد، فقال:
- من بهدينان؟
- نعم ياعمي.

- بنيتي، آخر ابرة اشتريتها مقابل ثمانية آلاف دينار، الافضل ان تسألي في مقر الهلال الاحمر، أعطيهم بعض المال، ستجدين القليل من هذا الشعب من أمة محمّد!

في بغداد أيقنت أن اخوّة الدم أقوى من الاخوّة في الله . ذهبنا الى مقر منظمة الهلال الاحمر، كانت حديقة المنظمة تعج بسيئا ت الطالع من شعب كان دوماً كبش فداء وهن يلتفعن بالسواد وآثار الفقر ووساخة البيئة وسوء التغذية بادية على وجوههن.

دفعت أمواج الذكريات خيالَ الضابط بعيداً ... من مذبحة (خورمشهر) الى مذابح (ديزفول) و(كيلان) و (قصر شيرين).. وهزيمة (الكارون) عندما وقعت القوات العر اقية المنكسرة بين هجوم الايرانيين والنهر .. الارض والسماء استحالتا نيراناً والايرانيون يهجمون كالجراد . في منتصف النهر الطافح بالجثث كان يحاول وصول الضفة الاخرى سالماً بساقه المصابة عندما سمع احدهم ينادي صاحبه "سليم، أسرع لا أتمكن وحدي من إخراجهما سوية" رأى جندياً يمسك بياقتي اثنين آخرين في محاولة يائسة لا بقاء رأسيهما طافيين فوق الماء ولكن الامواج والجثث كانت تضيق عليه نفَسه، وصل اليه قبل سليم:

- اترك لي هذا واسرع لنصل الضفة الاخرى.

بعد هذه السنوات الطوال يسأل نفسه لماذا لم ينقذ قائده؟ كان مصاباً وهو يقول لـه "أنقذني وسأعطيك ابنتي وأي شئ آخر تطلبه ..." لكنك لم تفعل .. وعندما استغاث احدهم بالكوردية، وبدون تفكير اندفعت نحوه كقطعة الحديد التي تنجذب الى المغناطيس . حربُ ايران وتدمير كوردستان وغزو الكويت، الفاتحون الجدد، العيون

المحدقة والجراح الملتهبة وأنهار الدم، س يوف الله المسلولة .. المغيرة وزياد والحجاج .. صدام وعدنان وعلي الكيمياوي، الذين يأتون مع رياح السموم، لعنة الايلاف والصحراء والدم الساخن، اولاد الجواري وقِربة الخمرة ... من مذبحة عاشوراءِ كربلاء الممهورة بسهم حرملة، لعناتُ زينب الحافية وصرخة عليّ الصغير الذي كان يئن لشربة من الفرات العكر ورأس الحسين الشهيد على سنّ رمحٍ قريشي منقوشةٌ عليه (الله اكبر)، هو إنتقام الهي... وقبل ان يموت طاغية، يولد آخر، سلسلة بلا انقطاع وسواد المآتم مستمر لا ينتهي.

قطعت كلمات كولجن سلسلة تفكيره عندما قالت:

- تأتي الحصة المقررة من ال حقن، يتم توزيع قسم منها ويضيع الباقي. وفي اليوم التالي تجد اضعاف ذلك في السوق السوداء، اصبح المال معبوداً لا يمشي اي شئ من دونه . كانت حديقة المنظمة ملآى بالاشباح السوداء التي يبدو في عيونها الانكسار والذل والغربة . هناك علمنا ان وزير الصحة في الداخل ولديه اجتماع. وهكذا بقينا ننتظر في متحف المومياءات الفرعونية وقرص الشمس قطعةُ صاجٍ ملتهبة. جلست امرأة بالقرب منا وكان معها طفل بعمر جيافان، يحمل في يده قطعة خبز اسمر تظهر فيها قطع نخالة الحنطة، مددت يدي الى حقيبتي واخرجت منها قطعة بسكويت ناولته اياها، وكصحراوي لم ير الدبس أخذ يلتهم البسكويت بنهمِ جائعٍ ، كانت المرأة تتطلع الي، لا ادري ما الذي قرأتُه في عينيها .. شكر، ندم، ضياع، أو شك، وعندما قلت لها

انني من كوردستان ردت بصوت منهك "شكراً خيّه.. نحن من الاماكن المقدسة في النجف" وبعد الاخذ والردّ في الحديث:
- كانوا كالوحوش يقتلون الناس، نساء، اطفال، ورجال . داسوا بالدبابات والمدرعات على اجسام البشر وجثث الموتى على حد سواء ووجهوا فوهات مدافعها الى المراقد المقدسة الملآى بالمدنيين. قُتل لي ولدان في حرب ايران والثالث كان في الرابعة عشرة عندما اخذوه ليلاً من البيت ولا اثر له حتى الان. جرجروه امام عيني وكما تلتم الضباع على جثة فريسة، كان الجميع يضربونه، تضرج بدمائه، الصيحات والاستغاثات، الله والنبي وكل الائمة لم تشفع له ولم يكن لها أية قيمة عندهم، وقف احد جنود الحرس الجمهوري فوق رأسه وهو يمسك البندقية من منتصفها بيده اليسرى وبالاخرى من فوهتها "أولاد القحبة.. الشيعة القوادين.. عملاء المجوس" وانهال على رأسه بأخمص البندقية، ارتميت على جسمه وتحسست وجهه الذي امتلأ جروحاً..... خرج الوزير وحواليه كومة الدبابير، هب الناس اليه وهم يحملون طلباتهم في ايديهم والحراس يدفعونهم كالحيوانات، كنت الوحيدة دون عباءة وملابس سوداء، اشار الوزير الي وسأل:
- من اين جئت؟
- من دهوك، اريد فقط حقنة واحدة فينكرستين.
وضع توقيعه على ورقة وقال:
- مخزن رقم خمسة.
اخرجت نفسي بصعوبة بالغة من بين اولئك الذين كانت تعط منهم رائحة نتنة... يعيشون في منطقة يمر فيها نهر ان والنظافة ركن

أساسي في الاسلام، والقذارة كقساوة قلوبهم وتزمتهم متجذرة في أعماقهم. نظرت الى الورقة، تحت التوقيع اسم الوزير (د. ئوميد مدحت) عرفت من الاسم أنه كردي.
في الصباح الباكر استأجرنا سيارة تاكسي برازيلي متهالكة سارت على طريق معسكر الرشيد ووقفت مقابل ملهى الطاحونة الحمراء امام بناية كتب عليها (مخزن رقم خمسة) حيث ترجلنا من السيارة. دلفنا الى الداخل، قاعة طويلة لكننا لم نر أحداً، استمرينا في المشي دون ان نشاهد أحداً كي نسأله، واخيراً وفي نهاية القاعة عند أحد اركانها كان يجلس شخصان، قال احدهما غاضباً:
- كيف دخلتم الى هنا، والى اين تذهبون؟
- دخلنا من الباب وعلى أقدامنا... أجبته بهدوء.
ظهر شخص ثالث وهو يضحك على صديقه ثم مد يده فناولْته الورقة، قال "تعالوا" وفتح باباً. ولكي لا يكون كلامي من قبيل المبالغة، فانني لا أقول أن الحقن كانت تكفي لكل سكان العراق، لكني واثقة لو كان المرضى أكثر بالآف المرات لكفّتهم الحقن التي كانت مخزنة هناك. أعطاني إبرة انتهت صلاحيتها، اعدتها له:
- أبدِلها!
نظر الي مندهشاً...
- تلك ورقة الوزير.
- ماذا يقرب منك؟
- نريد إبرة وليست مصاهرة!
- عفواً حاج عفواً... قالها بخجل وأعطانا واحدة جديدة.

في كل الاماكن، في الدوائر، المطاعم، في الشارع، المحلات التجارية، وفي السيارات كانوا يتعاملون مع الكورد كسكان الخليج الاثرياء. في المطعم شاهدت شخصاً يتناول التشريب وقطرات المرق تنساب على مرفقه، قلت لوالدي:

- ابي، بماذا كنتم تأكلون قبل ظهور الملاعق المعدنية؟

- بالخشبية التي كان يصنعها القرج .. ثم أردف بعد ان رأى ما رأيت.. تراث، سيأكلون كذلك حتى لو كانوا في أوروبا!

عندما عدت بعد ان غسلت يدي، كان احد الذين يضعون عقالاً على رؤوسهم يجلس بجانب والدي وهو يسأله:

- الحاج من الشمال؟

- من كوردستان، أم تستصعبون قولها؟

- اهلا وسهلاً.. انا احب الكورد كثيراً . ثم اخرج البوم صور من جيب صديرته وقال:

- إختر!

كانت كلها صور نساء.

- مبروك عليكم هذا الكار.. نحن الكورد مسلمون بأفعالنا!

كان مرآب نقل المسافرين يعج بالبشر، توجه شاب نحونا وقال:

- هل أحجز لكم مكاناً مريحاً؟

كان احدهم يقف على مقربة منا تبدو سحنته كمرقة باقلاء عكرة "أولاد القحبة ..أصبحوا خدماً للكرد" تناول الشاب ورقة المائتين وخمسين ديناراً التي أعطيته إياها كبقشيش وأودعها جيبه وهو يضحك.

في الطريق الى الموصل نام والدي في السيارة، وكان الرجلان الجالسان خلفنا يتحادثان، كان أحدهما يقول متفاخراً "الليلة البارحة نمت مع زوجة عقيد طيار، وكانت تقول لي، على المرأة مساعدة زوجها في الايام الصعبة وضيق ذات اليد ! " زوجة الطيار العراقي الذي كان الى وقت قريب مضى يخيف الناس عندما يمر بهم.

كان الضابط وئيسف ونسرين يصغون صامتين، تناولت كولج ن قدح الماء وشربت.

- كيف هو موقفهم من الكورد؟ سألها الضابط.

- في الحقيقة، النفوس والقلوب وكل خلية في أجسامهم مليئة بالحقد على الكورد الذين يعتبرونهم سبب هزيمتِهم والحصارِ الاقتصادي ودخولِ قوات التحالف، وخاصة الامريكية، الى العراق، او ربما كان النظام قد رسخ ذلك في أذهانهم عن طريق الاعلام . سمعت صاحب احد المحال التجارية في الموصل يقول "الله كريم، إذا سنحت الفرصة، عهدٌ علينا ان نجعل حملة الانفال نزهة بالمقارنة مع ما سيحل على رؤوس الكورد الكفرة الخونة، بدلاً من أن تكون نساؤهم للصليبيين، نحن أولى بهن"

قليل هذا ال ذي يمرون به بالمقابل مع ما فعلوه مع ايران وكوردستان والكويت، لكن مع ذلك لو أخذنا عامة الناس بنظر الاعتبار، فلا يشأ المرء إلا أن يعطف عليهم ويرأف لحالهم.

كان الضابط يصغي ويهز رأسه، ثم قال:

- الحرب دمار... ثم عدتِ الى دهوك؟

- لا

- لماذا؟
- عندما جاء الطبيب الى الردهة وحقن جيافان قال لي "حدث لديه نزيف داخلي وهو بحاجة الى بلازما الدم وبسرعة " قلت له "دكتور، وما هو بلازما الدم وأين أحصل عليه!؟"
- البلازما هو سائل الدم المصفى من كريات الدم الحمراء ويوجد في مختبر الدم المركزي ببغداد.
أعطانا الطبيب، الذي أغرقناه بال هدايا منذ اليوم الاول لوصولنا، ورقةً بذلك وحتى خرجتْ خطاباً رسمياً ممهوراً من إدارة المستشفى، بعد ان نال صاحب كل توقيع نصيبه من المعلوم، كان الدوام قد شارف على نهايته . اشفقت على والدي من كثرة ركوب السيارات والحر وقلة النوم، كان منهكاً جداً، لكننا كنا مضطرى ن للعودة الى بغداد، لحظتها أحسست اكثر من أيٍّ وقت مضى حاجتي لزوجي.
- ماذا كان يعمل؟
- مهندساً
- لماذا هاجر؟
- هرب!
- ممن!؟
- من الذين اصبحوا مافيات خلف ستارة دماء الشهداء !!... بعد ظهر نفس اليوم، وكان اليوم الرابع، عدنا الى بغداد . كانت غرفة المختبر مكتظة با لناس، وكان موظف مناوب واحد يعمل على الاجهزة، ناولته الخطاب واجاب:

- ليس اكثر من كيس واحد أو اثنين وبعد التاسعة ليلاً .. ثم اردف.. لم أتناول العشاء بعد!
وضعت عشرة الآف دينار امامه على الطاولة:
- في الحقيقة انتم تتعبون كثيراً والراتب لا يكاد يكفي شيئاً.
- لا تذهبا الى القاعة، اجلسا هنا . انتظري حتى تخرج البلازما الجديدة فتختارين منها الاكياس المصفاة جيداً والمملوءة تماماً.
- كم واحداً يمكنني ان آخذ؟
- قدر ما تشائين...
واخترت منها تسعة أكياس ملآى.
- يجب ان تحفظ في الثلج وتستعمل خلال اربع وعشرين ساعة وإلا ستفسد، هناك بجانب المختبر محل، أعطيه هذه الورقة.
أعطاني صاحب الدكان صندوق فلين اغلى بكثير من ثمنه، اعلمُ انهما متفقان ولكني كنت مضطرة. بقي امر الثلج، استأجرنا سيارة تاكسي وقلت للسائق ان لا يقف حتى نعثر عليه، ذهبنا الى محال بيع الثلج ومعملَيْ ثلج لكننا لم نحصل على شئ منه.
اخيراً ذهبنا الى محلات بيع السمك، كان السوق مقفلاً وبعد السؤال ايقظ سائق التاكسي احد اصحاب الدكاكين في شقة فوق أبنية السوق، كان مصرياً، باعنا نصف قالب من الثلج بثمن السمك .
كان الليل قد انتصف عندما وضعنا اكياس البلازما بين قطع الثلج وعدنا الى المرآب.. منتصف الليل وطريق بغداد الموصل !! قلت لأبي من الافضل ان نجد سائقاً كردياً يعمل على خط كركوك، لحظتها تقدم نحونا رجل يمشي بمساعدة عكاز تحت إبطه وكأنه يعرفنا، قال لأبي:

- عمي هل تسافرون الى الموصل؟
- نعم ياعم.
- فلنستأجر سيارة لوحدنا.
- ولكن كيف عرفت اننا كُرد؟... سألته في الطريق.
- كما يقول ابناء عمومتنا الالمان، الدم الآري نقي ... قال وهو يضحك.
- ماذا تفعل في بغداد؟
- نشتري لوازم جيش كوردستان من المعسكرات العراقية.
قبل ان يبدأ الدوام في المستشفى كنت اجلس الى جانب جيافان عندما جاء الطبيب وقال:
- لماذا لم تسافري في الصباح الباكر؟
- الى أين دكتور؟
- بغداد!
- لقد عدت... ورفعت غطاء الصندوق الفليني.
- ماذا؟ يوم امس عند نهاية الدوام كنتِ هنا ! وتريدينني لا أصدق ان الكورد احفاد الجن؟
أعطَوْا جيافان ثلاثة اكياس، ووزعت اربعة اكياس على مرضى كانوا في حاجة اليها واعطيت ا لكيسين الباقيين مع الفلينة للطبيب يمنحها لمن يحتاج . قبل الغروب وغلقِ الطريق الرابط بين الموصل ودهوك عدنا الى البيت، يوم امس كان الجمعة، وصباح اليوم وقبل ان نتناول الفطور كان افراد الشرطة يدقون بابنا.
- حسناً... لماذا حاولتِ الانتحار يا نسرين؟
بعد لحظات من الصمت:

- انا اشتغل وهو يلعب القمار .. انا أمسح عرق جبيني وهو ينام، كل ذلك رضيت به اكراماً للوالد والاشقاء لأنني متزوجة بالمبادلة[١٣] لعنة الله على من جلب عادة زواج المبادلة الى شعبنا وعلى الذي عمل بها لأول مرة، والملاّ الذي عقد الزواج، والذين شهدوا عليه. في ذلك اليوم عدت الى البيت منهكة مثل كل يوم، وانا متعودة على عدم عودته للبيت طالما ظل دينار واحد في جيبه، عندما كنت نائمة في الليل شعرت بيد تعبث بأذني، فتحت عيني لكنه استطاع ان ينزع القرط عن اذني ويهرب صوب الباب ويختفي، كان ذلك كل ما تبقى لي وذهب هو الآخر عل ى طاولة القمار مثل كل كدح السنين، ومن اليأس بكيت بمرارة، وجاءت صاحبة الدار وطلبت الايجار.

- ألم يكن هناك سبيل آخر غير التفكير بالانتحار حرقاً؟

- لقد حفظتُ الدرس، سمعة العائلة والقبيلة المفلسة وجهل العشيرة، عدا خطبة دينية طويلة ومثالية حول حقوق الزوج على الزوجة ووجوب طاعتها له ويختموها في النهاية بالحكمة الكوردية المعتادة (عار الدنيا أشد إيلاماً من عذاب القبر).

الجالسة أمام الضابط لم تكن نسرين، التي بهت لون ثوبها الاحمر لتقادمه، انما كانت أمواج الاوحال الحمراء في نهر دجلة الهادر في ذلك الربيع الزاهي ... على الضفة الاخرى من النهر، الناس والزوار سعداء يمرحون، فقط في صحراء قلبه المحروم خيمت الاحزان، كانت الامواج تتلاعب بالزورق، يوشك على الغرق، لكنه يعاود الظهور ثانية . كان قد نأى بنفسه الى جانب الشباك، ضجيج النساء، اللواتي كن قبل ان يخرج فوج منهن يدخل آخر،

ضيّع الزورق من امام عينيه، انتقل ببصره بين موجات النهر، لم يعرف هل خرج عن مدى نظره أو غرق، لكن الامواج كانت على دأبها تتدافع فوق بعضها منحدرة صوب الجنوب.
كان يتخذ مجلسه امام النافذة كل يوم والنساء يتحلقن حول القفص الملفوف بناموسية بيضاء وأخته عزيزة ترقد بداخله كف روجة مشوية، أنينها يمزق طبلة اذنيه وتهوي بنفسيته في قاع وادٍ سحيق، كان قد استحال ورقة مصفرة في مهب ريح خريفية متأخرة بانتظار رقصة نشوى ... الطابق الثالث في المستشفى العام بالموصل عند رأس التلة المشرف على دجلة، مقابل الغابات وتلال (قازي كَنْدي). في ذروة الربيع ايضاً كانت السويقة التي تربط اخته بشجرة الحياة تذبل شيئاً فشيئاً، وفي لحظة منسية من عمر الزمن، انقطعت وبعود ثقاب واحد حوّلتْ نور الدنيا وحلاوة الحياة الى ظلام دامس ومرارة . حرام ان تدعى هذه التي ينتحر فيها الانسان حياة! أفّ من الجهلة القساة، يضعون بناتهم امام خيار قاتل... اما ان يعشن بالعذاب والاحزان والالآم او ان يُلقين بأنفسهن الى القبر من نافذة نارية .. بالامس عزيزة واليوم نسرين وغداً...!؟
- نسرين تعالي إمضي هنا، وانت ايضاً ئيسف، هذه أقوالكما، الصحيح أن تحال الى المحكمة، ولكن الامر مختلف في المسائل الاجتماعية، لذلك اعطيكما فرصة لكي تتفقا فيما بينطما وتعودا الى بيتكما وإلا... وأشار الى الاضبارة!
- استاذ لم يبق شئ نقوله لبعضنا... قاطعته نسرين بحزم.

كان الضابط ينقر بسبابته على الطاولة والحزن باد عليه، لايريد أن يعرف في أي طابق تقع رد هة الحروق في مستشفى آز ادي... التفت الى ئيسف وقال:

- تستطيع انت الذهاب ... ثم نهض من مكانه ووقف امام النافذة الصغيرة وقال:

- نسرين، المجتمع الكوردي جزء من المجتمع الشرقي الذي هو متخلف اصلاً، ومن الخطأ جداً بعد اربع او خمس سنوات من شبه حرية عاشها ان نقارنه بالمجتمعات الغربية . العشائرية، ولاسباب عديدة برزت وهي في أوجها، وبدلاً من ان تقضي الكورديَتي على الاغواتية فانها تنمّيها ... وأشار باصبعه الى الخارج ... اترين ذلك الاستاذ الذي ترجل لتوه من السيارة؟ كل ملامحه وهندامه وهيأته تشي بانه انسان متحضر، ولكنك إن أردت أن تَري القبلية على أصولها حاولي استفزازه، فالطمى يترسب في القاع . نسرين، قبل ان يتخذ القاضي قراره تبدأ قصاصات الورق الصغيرة والمكالمات بالعمل ببطئ وكالسم يسري مفعولها، لا يخافون من المسلّح لأنهم متأكدون أنه اذا لم يتم إقناعه فبالامكان شراؤه، ولكن الذي يفكر، في نظرهم، متمردٌ وخ لية سرطانية يجب اقتلاعها وجيوبهم ملآى بالذرائع والحجج الجاهزة.. الدين، العادات والتقاليد الكوردية، الحزبية الضيقة، والاخلاق ... اشعر بمدى آلامك، ستكونين ضحية سهلة للجهل والتزمت، وئيسف لن ينتظر اكثر من فصل واحد، عطفاً واشفاقاً من جهة واحتراماً لذكرى من جهة اخرى ويتزوج بعدها، وانت يا كولجن ارجو ان تعودا الى البيت وحاولي اقناعها.

كانتا تتجهان صوب البوابة الكبيرة عندما جاء النقيب هوكر وبائعا الثلج يتقدمانه.
- بقدر ما هي واثقة بقدر ما هي عنيدة! قال الضابط ووضع النقيب الاضبارة على الطاولة ... رفع اصابع يده اليسرى للاعلى على هيئة قدح وفتح راحة كفه اليمنى فوقها وقال "لو ان حيطان بيت والدها... وبسط أصابع يده اليسرى ... فان السقف سيستوي واقفاً على الكتب، انها شقيقة آزاد شاهين!

٧

توقفت سيارة (بي إم دبليو) وقت الفطور عند نقطة تفتيش آلوكا وترجّلا منها، توجها الى الشابين الجالسين في ظل غرفة الاسايش[١٤] وكان أحدهما يقول للآخر:

- مرتباتنا الشهرية متساوية، أكلك في المطاعم وسجائرك برلمان فاخرة، من أين تأتي بثمن كل ذلك؟

- عمي بيار انت لا تعرف تدبير أمورك! قالها ضاحكاً

- صباح الخير، هل المفوض ابو علي هنا؟

خرج ابو علي من الغرفة وسلم بحرارة على دَشْتي:

- أهلا وسهلاً استاذ، تفضلوا

- شكراً نحن في عجلة، احد أبناء عمومتي.....

- نعم استاذ، يا مرحباً به.

استقلّا السيارة ثانية واجتازا السيطرة. كان بيار ينظر، شئٌ ما غير طبيعي يجري، سنوات طويلة مضت و (آلوكا) ليست فقط نقطة تفتيش، بل خط فاصل مع حكومة بغداد وهناك عدد محدود ومعروف من السيارات مرخص لها بنقل الركاب بين الجانبين، كان ابو علي لا يهدأ جيئة وذهاب ينظر جهة الاياب وهو يشعل سيجارة إثر اخرى.

- ما به، ثائر الاعصاب هكذا وكأن دبوراً لسعه؟!

مع ظهور الـ (بي ام دبليو) البيضاء، التفت بيار الى ابو علي فوجده يتنهد بعمق وهو يلقي بالسيجارة ويشير للسائق بالعبور والوقوف في طابور الانتظار، مشى الى جانب السيارة وهو ينظر الى داخلها. صحيح انهم ثلاثة اشخاص لكن الثالث يخبئ رأسه كالنعامة! قال في نفسه:

- هذا الوجه ليس غريباً علي، لقد رأيته قبلاً ولكن أين.. أين؟

فجأة ضرب جبينه براحة يده:

- آآآه والله انه ابن القحبة ذلك، برأس أنفه وذقنه الموشومين، أبو شيماء! لن أنسى أبداً ملامح وجهه ولا ذلك اليوم في سيطرة (بيسري) عندما انتزع كيلوي السكر من والدتي ونثره امام أعيننا على الارض كما فعل ذلك مع الآخر ين وهو يكيل لهم سيلاً من الشتائم. ولكن هؤلاء أتوا به من خلف السيطرة ! هل من المعقول أنه سيشتغل معنا !! لا، لا ولماذا لا يكون جماعتنا معهم، فمستشارونا[١٥] مازالوا مستشاري الظل.

كانت سيارة حمل صغيرة محملة ببراميل النفط المهرب تتهيأ لمغادرة السيطرة.

- يا إبن العم، هل ستمر بالمدينة؟

- نعم.

- هلا أخذتني معك الى السوق.

- تفضل.

قال لصاحبه وهو يفتح الباب "سأعود في الحال"

ترجل عند سوق السلاح، سأل عن ادريس، قال له احدهم انه في الزقاق، انعطف عند الرواق الضيق، كانت انواع الاسلحة

والاعتدة معروضة للبيع، كان ادريس يقف مع رجلين آخرين وهو يساومهما على شراء جهاز اتصالات من نوع راكال وناظور ليلي. جذبه بيار من ساعده وانفرد به:
- هذا رقم السيارة... فيها أحد عناصر النظام، علي العودة الان.
- وصَلْ... اذهب انت مع السلامة.
في غرفة المدير سلم دشتي إيصالاً بتحويل المبلغ الى ابو شيماء وقال:
- تفضل وامضي لنا هنا.
لم يكن في مقدور أحدٍ من الحاضرين أن يكتم فرحته . كان ئيسف يفكر في طاولة القمار .. قبل فترة لم يكن في جيبه غير أربعة دنانير مفردة، والان معه مال وحصته بالالاف، فرّك اصابع يديه . وكان المدير فاغراً فاه لفرط سعادته، يهز بدنه بحركة مكوكية على كرسيه الدوار ومن كل معاملة يحصل على ثمن دمغها بختم الدائرة المبارك ... فالدجاج الذي يبيض ذهباً قد توفر كثيراً في كوردستان. أما دشتي الذي يشبه ثعلباً عجوزاً قُطع ذنبه في سبع مصائد، فقد كان يوزع الابتسامات مجاناً لينشر جواً من الطمأنينة والهدوء، مع انه كان أكثرهم عجلة لأنهاء هذا الامر، فهو صاحب حصة الاسد، قطعة الارض التي قيمتها مائة وأربعون الف دينار اشتراها بخمسين الفاً، ثلاثون الفاً لئيسف والمدير و .. و.. والستون الفاً الباقية تضاف الى رصيده الذي جمعه بعد الانتفاضة . كم كان صادقاً ذلك الذي قال "المفكرون يزرعون والابطال يروونها بدمائهم وأمثالُ دشتي يتمتعون بثمارها"

وابو شيماء الذي يستحق الموت عقاباً له على ما فعله في يومٍ واحدٍ فقط بحق الناس المدنيين في سيطرة بيسري وما نهبه من بيوت الناس المنتفضين الذين تركوا بيوتهم مشرعة الابواب يوم الهجرة المليونية، ابو شيماء هذا جاؤا به اليوم ليكافئوه وينثروا فوق رأسه خمسين الف دينار وفوقها قبلة اخوية وكما ادخلوه بسهولة، كذلك اخرجوه!

وقت الظهيرة... القيظ وعمليات حصاد الحنطة والرياح القادمة من البراري الحارة تنشر رائحة شواط في كل ارجاء المكان اضافة الى مضماري الطريق الاس فلتي اللذين استحالا انبوبي مدفأة كهربائية يشعان بالحرارة . كان دشتي وابو علي، بعد عبور الضيف العزيز الى الجهة الاخرى، يتمشيان وشفاههما لا تنطبق، كانا يمسحان عرقهما وهما في غاية السعادة، في باب غرفة السيطرة مد دشتي يده الى جيب صديرة ابو علي ثم صعد الى سيارته، وعندما دخل بيار كان ابو علي يعد الدنانير، جمدت عيناه على بيار ولم يعرف لماذا قال:

- كان الاستاذ دشتي مديناً لي ببعض المال.

- يبدو كذلك.. هل كان المبلغ كبيراً؟

- لا لا، فقط الف دينار... قالها باضطراب.

اغلق بيار الباب في ذلك القيظ لكي يُكمل حارس بوابة الوط ن عَدّ دَيْنه، وهو يقول "أن يعبر شخص لساعتين مقابل الف دينار عملٌ جيد يا أُمّة، نحن نطردهم من الباب وانتم تدخلونهم من الشباك ! يا تلميذ عفلق هذا الشعب له رب!

٨

كانت نسرين التي لم تكن الابتسامة تفارق شفتيها، البرعم الذي لم يجف عليه ندى الصباح، التي لم تش بع بعد من التأرجح في أرجوحة الحياة، جلد وعظم بملامح خريفية، تجلس حزينة مشوشة على مصطبة خشبية في صالة الانتظار بالمحكمة . لمحت والدها فانفرجت شفتاها عن ابتسامة سرعان ما اختفت . سحبتها الذكريات بعيداً، ايام كانت في بيت اهلها، آمال وامنيات المستقبل، احلام المراهقة.. كل الامنيات غدت حسرة والفرح غدا بكاءاً .. دلال ودلع الصبايا اصبح آهات وانات .. بات آلاماً وأحزاناً .. إستحال سراباً، وقبل أن يتفتح ربيعها ذبل . فلينتقم الله من الاشرار، مائة فنجان مهشم وقراءةُ بخت وطالع، مائةُ دعاء وتعويذة خطّها معاً راهبٌ وشيخُ طريقة لن تُقيم الحظ من عثرته . مسكينة ذليلة بين يدي زوج قذر.. تتصارع في ميدان رأسها قوتان متضادتان، خيالٌ وغد نموذجي .. وواقعٌ معاش ومرارة اليوم، ومن اعماقها كان النداء يتردد : الخلاص من مرارة الدنيا بكل عذاباتها والآمها بالموت وحده، فالوجود والعدم أضحيا سيان.

نظرتْ الى الملاك الراقد في حضنها، كانت غارقة في نوم لذيذ "وارفين، لم يتبق لي شئ في هذه الدنيا أعيش من أجله سواكِ، هرب الحظ مني، والسعادة مجرد كلمة على شفتي، غدوت وردة

بلا أشواك في ربيع بألوان الطيف، مخادع . اغنياتي بكائي، وابتساماتي عاري"
جاء شرطيان، بينهما شاب م قيد بالكلبجات ووقفوا على مقربة منهم امام باب كتب عليها (قاضي الجنايات) اقترب احدهم من الشاب المقيد وهمس في أذنه بشئ، سرعان ما اضطرب وبانت علامات الغضب على وجهه، انتفخت أوردة عنقه وصدغيه واخذت تنبض بضربات قلبه، صرخ:
- سرحان! لن تطال ذلك لا في حياتي ولا في مماتي، صحيح لست متصوفاً مثلك وقد قتلتُ أخاك في لحظة غضب ولستُ نادماً فحسب بل اني أبصق على نفسي، ولكن لو قُتلتُ عشرات المرات فاني لن أقبل ان يزوجوك شقيقتي التي بعمر ابنتك مقابل دمكم المهدور.
- ولكن يا عم...
قال عجوز ولكن المقيد أسرع وقطع كلامه:
- بلا ولكن، انا المذنب وانا من سينال العقاب.
انبرى رجل بشوارب كثة، يحمل في يده مسبحة ذو حبات كبيرة وقال بنبرة استعلاء:
- نحن هنا لكي نحرر يديك من تلك الكلبجات، يوم امس وبحضور الملاّ وشاهدين تم عقد قرانه على الفتاة!
بات كبُركان يوشك على الانفجار، التفت الى والده العجوز لكي يتأكد إن كان الذي سمعه صحيح أو لا، لكن والده اشاح بوجهه بمرارة، لحظتها اسرع شاب متقدماً نحوهم وقال للعجوز:
- عمي فلنذهب!

- اين يا عم؟.. نطقها بصعوبة.
- لقد حرقت بيريفان نفسها!
كان للخبر وقع الصاعقة عليهم، اصبحوا يتطلعون في وجوه بعضهم بذهول. كانت شفتا العجوز تتراجفان دون ان ينبس ببنت شفة، اما المقيد فقد غطى وجهه بيديه ولصق رأسه بالحائط.
كانت نسرين تنظر بدقة الى قانون ساكسونيا في مسرحية تراجيدية وهي تقول في نفسها "ايتها الخنازير اليمنية، والله سلمت يداها، عذابُ يوم ولا مذلة سنين"
كانت بناية المحكمة في ذلك اليوم تبدو كخلية نحل وهي في حركة غير اعتيادية . جماعة تدخل واخرى تخرج باستمرار .. سأل عجوزٌ أحد المستخدمين:
- ما هذا الزحام؟
- عوائل المؤنفَلين، يستخرجون شهادات الوفاة بعد صدور القرار من البرلمان.
- يبدو أن إخواننا قد قطعوا أمل القادة الكورد؟
استخراج شهادات الوفاة قتلَ الامل واللهفة في صدور عشرات الالاف من نساء صغيرات بلقاء أزواجهن ومثلهن اطفالٌ يحلمون وينتظرون عودة ابائهم محملين بالهدايا . طال الزمن وامتدت المرحلة وفي النهاية قطعتْ شهادةُ الوفاة خيطَ الامل الواهي وأخمدت بصيص النور بنجاة اقاربهم من محرقة جرتْ بأمرٍ من سائق التاكسي الذي وجد نفسه في صباح يوم منفلت من عصر الانحطاط وقبل ان يستفيق من سُكره بعد انقضاء ليلة حمراء تحت خيمة كاولية وقد بُشر بمنحه رتبة جنرال وترشيحه لمنصب وزير

الدفاع، والذي قاد جيش العروبة وبإسم الله ساق الشعب الكوردي بلا استثناء الى مختبرات الاسلحة البايلوجية والقبور الجماعية، وبعد إبادة قسم كبير من ذلك الشعب كانت أكاليل وتيجان الورود وبرقيات التهنئة من المحيط الى الخليج تنهال أمام قدميه مباركة له النصر العظيم.

فجأة ظهر ئيسف مرتدياً حلة جديدة وا لى جواره يمشي والده، حدجته نسرين بنظراتها من قمة رأسه حتى حذائه المدهون اللامع، تذكرته عندما عاد ذات ليلة شتائية قارصة البرودة والمدفأة الايرانية الصغيرة مطفأة لعدم توفر النفط الذي وصل سعر اللتر منه الى أربعة دنانير، وكانت جيوب ملابسه الجديدة كما اليوم منتشية بالمال وهو يحمل امام صدره تلفزيون ماركة قيثارة وقال "اشتريته بستة عشر ألف دينار " وقبل ان ينتهي الاسبوع اختفت كلها كما جاءت . فقط أموال المقامرين ليست ملكهم.. وبالضبط كما فعلتْ في تلك الليلة فقد اشاحت نسرين بوجهها عنه.

- نسرين شاهين، يوسف صبري....

جاء صوت البواب مثل ناقوس صباح يوم الاحد، فجفلت نسرين . في غرفة القاضي، طاولة كبيرة يجلس خلفها رجل هرم وبجانبه يجلس كاتب المحكمة.. وموظف الحكومة اقرب الى الروبوت منه الى البشر حين يعمل ... دفع القاضي الهرم عدسة نظارته فوق عمود انفه الدقيق الى الاعلى قليلاً ورفع رأ سه بعد ان طوى الاضبارة التي بين يديه . نسرين تقف امامه ملتفعة بعباءتها لا يظهر منها سوى وجهها ويداها اللتان تحملان بهما طفلتها، عروقُ

يديها البارزة أكثرَ من صدغيها تتشابكُ كنهري (زي) و (روباري شين) في خارطة كوردستان المعلقة على الحائط خلف الحاكم.
- ئيسف... ماذا تشتغل؟
- حالياً عاطل عن العمل... تلعثم ئيسف.
- في هذا الغلاء والبلوى وبدون عمل ! كيف تعيش؟ ثم التفت وأشار الى الطفلة على كتف نسرين وأردف، أترضعيها حليبك أو من حليب العلب؟
- سيدي، الاثنين. في البيت أرضعها حليبي وفي العمل أضطر الى إرضاعها الحليب الصناعي ايضاً.
- بكم تشترين العلبة؟
- الان بخمسة وثمانين ديناراً
- وبكم كانت قبلاً؟ ... وكان يهز رأسه اثناء ذلك.
- سيدي، اشتريته حتى بسعر مائة واربعين.
اشار بسبابته وقال:
- فقط علبة الحليب بمائة واربعين، وايجار البيت وشراء الملابس والادوية والمأكل والمشرب و..و.. والاستاذ عاطل !؟
شعرت نسرين ان الضابط قد مال الى جانبها في كتابة محضر التحقيق.
- نسرين انت خرجت من بيتك... ماذا تريدين؟
- الطلاق.
كلمة واحدة فقط خرجت هكذا دون وجل او خجل من بين شفتيها المتيبستين ودون ان تشيح بنظرها عن القاضي.

- أتدركين معنى الطلاق؟ في منطقتنا عندما تطلب المرأة الطلاق فانها لا تطلب أمراً منكراً فحسب بل وتفتح على نفسها أوسع أبواب جهنم، دخول الجمل في سم الخياط أسهل من تقبّل المرأة المطلقة في هذا المجتمع!!

- نسرين...

حاول ئيسف الكلام لكن نسرين قطعت عليه السبيل وأسرعت بالخروج من المحكمة، وضع القا ضي نظارته على الطاولة والتفت الى الكاتب، قال بمرارة:

- أفّ من هؤلاء الناس، باسلاميتهم الكاثوليكية حولوا الزواج الذي هو رحمة من الله للبشر الى زنزانة بلا باب . لا يسألون انفسهم لماذا حلل الاسلام الطلاق! العرب يطلقونهن ونحن نقتلهن!

وضع مرفقه على الطاولة وبدأ يحك جبينه:

- انا لا افهم عديم الناموس هذا، تقول له بصراحة انا لا أريدك، فكيف وبأي وجه يريد العيش معها، كيف يثق بها؟

- المرأة الكوردية لا تطلب الطلاق من الرجل .. قال الكاتب وسكت.

- كل الغلط من اولئك الجهلة الذين لا يفرقون بين البقرة والعجل!

- حقاً أستاذ.. لماذا معظم أحاديثهم تدور حول المرأة والطعام؟!

- من فسقهم ودناءة نفوسهم... انا أيضاً لست مع الطلاق، فالطلاق خلاف، والقتل تكريس للعار.

إنفتح الباب ودخل الحموان.

- إبنتاكما متزوجتان بالمبادلة وكلتاهما لديها اطفال، والمسألة هنا انسانية اكثر، في هذه السنوات العجا ف انقلبت حياتنا ومعيشتنا

رأساً على عقب ومجتمعنا يمر في مرحلة مخاض عسيرة .. لذلك سأمنحكم فرصة لتسوية المشكلة فيما بينكم، صحيح ان شهادة الرجل وحصته من الميراث ضعف حصة المرأة في حكم الشريعة، ولكن في القانون المرأة كالرجل انسانٌ كامل الاهلية، بامكانكم الانصراف حتى يتم اخطاركم، ونسرين تبقى في بيت كولجن.

أوجس صبري في نفسه خيفة وشعر بناقوس الخطر يدق، كان يفكر "اذا تطلقت كنّتي فان هذا يعني طلاق ابنتي ايضاً، ونسرين مصرة على الطلاق، ماذا بوسعي ان أفعل؟ أيّ بؤس هذا، اي زمان هذا الذي وقعنا فيه؟ تلك البائسات اللواتي كُنّ ا نسوقهن كالابقار لم يكن يبدين عدم الرضا فحسب بل لم يكن يتأففن أيضاً! كان يمشي غير شاعر بزحمة الناس والسيارات من حوله، وفجأة أمسكت يدٌ بساعده:

- خيراً صبري، إجتزتني ولم تُسلّم، ناديت عليك ولم تجبني؟

- آه محي.. ماذا أقول.

- تعال تناول شاياً.

وبينما هما يحتسيان الشاي ويجهزان لفافات التبغ، سرد صبري الحكاية كلها. هز محي رأسه:

- حقيقة يا صبري هذه مشكلة كبيرة، أعانك الله عليها.

- ماذا فعلت مع أصهارك الجدد؟

- لم أُعطهم البنت، جاءوا ثانية ولم اعطهم إياها، مهما حاولوا هم ومُلاّ التَكّـة...

- مُلّا ماذا؟.. قطع صبري حديثه.

- في الحقيقة صبري ذلك المُلاّ خدعني ذات مرة.
- أكاد لا اصدق، الملاّ قسيم انسان صالح.
- لم اقل إنه سيئ، انه وليّ ولكن فقط باللسان ! قبل ان تُرحِّلنا الحكومة عن قُرانا ألقى في أحد أيام الجمع خطبة عن الزواج، فقال مبتسماً ويداه كحجارتي الرحى تفركان المس بحة بينهما " لو تصادف وجود جنازة ودخول وقت الصلاة وزواج فتاة في آن واحد فان من واجب الرجل المسلم ان يعجل بزواج الفتاة ثم يواري الجنازة التراب واخيراً يؤدي الصلاة " وانا الساذج صدقته وزوجت ثلاثاً من بناتي في تلك الليلة وبدون مهر ! مرت السنين وعنست بناته، وكان كل من يتقدم لخطبتهن يرجع خالي الوفاض لانه كان يطلب مهراً كبيراً، فليضرب رأسه بحيطان الجامع هذه المرة إذا شاء!
- إنصحني الان ماذا أفعل؟.. ضاعت أمامي جميع السبل.
- لم يبق أمامك غير باب واحد.
- أيّ باب؟
- الآغا... ولكن انتبه لنفسك لا تذهب لتكحلها فتعميها . يجب ان تكون بانتباه الذئب وهو يخطو وبسرعة العقرب عندما يلدغ ضحيته، ديمومتهم مرهونة بمشاكل الناس، كالمنشار يأكلون في الطالع والنازل.

كان جالساً في صدر الديوان، عندما يضحك يهتز جذعه من البطن كيدي المايسترو وهو يقود اوركسترا تعزف لحناً لشوبارت، او كعجل جرى تس‌مينه في سهول هولندا . القصر مبني بالطابوق الصخري ومغلف بالمرمر، زينت سقوفه من الداخل بالنقوش

المراكشية وصُرفت عليه ثروة بحسابات اليوم، اضافة الى قطع الانتيكة المنتشرة هنا وهناك، واكثر ما يلفت النظر صورة الآغا بالاسود والابيض وهو يعتمر زوجاً من اليشاميغ وبدل ة بَركيز فاخرة من نوع (بَكر بَكي) يلف خصره بصفوف من أحزمة الرصاص، والصورة مؤطرة بإطار من ذهب عُلقت على الحائط بين بندقيتين على هيئة حرف (أكس) الانكليزي، كانت تبدو كصورة من الخيال، وهو بشاربه الهتلري يقف بقامته المرصوصة كحجارة الحدل.

كان ئيسف يجول ببصره وهو يقول في نفسه "هذا الذي كان يسوق رجال ثلاثين قرية بعصاه وكان متصرف لواء الموصل يخشاه، وينافسُ في سعةِ سلطاته نوري السعيد، هنالك دوماً أتباع كي يحولوا خنوص الخنزير الى نمر".

اما والده صبري فقد كان منهمكاً في توجيه المديح للآغا والثناء على العائلة الطاهرة، وقولة (مولاي وسيدي) بين كل كلمتين لتسخين الحديث الذي انعش الآغا وجعله كقربة منفوخة.

- ابي، صورة الآغا تلك هل هي من بدايات الثورة؟

قال ئيسف بصوت منخفض، لكن والده لم يدعه يتابع كلامه فأدنى فمه من أذنه وقال له:

- اصمت ايها الخنزير صاحب اللسان الطويل، ومتى قدم هذا الآغا عملاً مشرفاً لأمته؟ انها صورته يوم كان رئيساً للجحوش[١٦].

ثم التفت الى الآغا وابتسم:

- نعم مولانا، سيكون الامر كما تقولون، ليس للرعية إلا راعيها، هل رأيتم غنماً بلا راع؟
كانت كلمات صبري تنعش الآغا.
- كن متأكداً صبري، ستجري الامور كما تريد او سيع ض شاهين وابنه أصابعهما ندماً.
- سيدي، انا واثق مما تقولون، واذا اجبرتم شاهين سينتشر الخبر بين الناس وسيحسبون لكم الف حساب وسيلجأون للاحتماء بظلّكم أكثر.
- اقوالك حِكم..
قطعت تحية شاهين حديثهم، صافح الآغا وجلس، رحب به الآغا بلا مبالاة.
- مرحباً بك حاج شاهين ، تترفع عن المجيئ الى ديواننا إذا لم أبعث أنا في طلبك؟
- أستغفر الله سيدي، ذلك أمر فوق قيمتي وقدري أن أترفع عن المجيئ الى ديوانكم ولكن ماذا عساي أفعل، المعيشة باتت صعبة.
بدا الآغا كالشيخ بين مريديه وعيون الجميع ترقب حركة شفتيه، قال:
- حسناً يا حاج، هذا انت وهذا نسيبك، في المرة الماضية غضبتُ كثيراً، ولكن ما العمل، انا لا اريد ان أكسر بخاطر أقاربي، لذلك فقد جمعتكم ببعض مرة اخرى لكي تحلوا هذه المشكلة فيما بينكم بعيداً عن الشرطة والمحاكم، وانا لا أطلب منكم بل أطالبكم ان تتفقوا فيما بينكم . يا حاج انت تعرف اكثر م ني ان دهوك قرية كبيرة واهلها يعرفون بعضهم.. اليس كذلك يا جماعة؟

- سيدي، أطال الله لنا في عمرك المديد، إن الله بحكمته التي لا يدركها أحد قد ربط الطلاق ببُغضه.
كان الجالسون في الديوان كمُصلّي يوم الجمعة يستمعون الى الخطبة، التي لا يفقهون منها شيئاً، وهم يهزو ن الرؤوس، وئيسف في تقليبه حبات المسبحة بين يديه كان ينقل بصره بين حميّه والآغا الذي كان يتكلم بفمه ويديه، قال مع نفسه "ايها الظالم ابن الكافر، كم تحب اقرباءك ! تحبنا حب الذئب للشاة، كم أعدمت من الشباب بيد الاعداء، كم قرية أحرقت ونهبت؟ علي كيمياوي، طالما بقي أمثالك لن نصبح أصحاب حكومة وقانون وأخلاق، من اين كان يعرف هذا الشعب الخمرة والقمار، ما هي العمالة والارتزاق" ابتسم لما خطر بباله ذلك اليوم الذي تلاسن فيه اسماعيل خَجي وخليل سورمي الذي كان يدافع عن الآغا، واسماعيل يقول له "حقك ان تدافع عنه، فأنت ووالده كن تما رفاقاً في الهرولة، أنت بين الصفا والمروة في مكة وهو ما بين ..... وسرّة صباح وسميرة توفيق في بيروت.
- ماذا قلت يا حاج شاهين؟
- يا آغا، ثلاث سنوات وانا أتكلم بإسم القرابة، لكن اليوم القرار ليس لي، مرة واحدة أجبرتُ إبنتي وهذه هي النتيجة، المسألة وصلت الى ا لمحكمة، اذا عدِلتْ ابنتي عن قرارها ورجعت الى بيتها فخيراً وإلا فانني لن أضطرها لفعل اي شئ لا ترضاه هي، اما كلام الناس، متى كان الناس راضين عن اي شخص لكي يرضوا عني؟ صحيح ما يقوله الاستاذ ان الطلاق أمر بغيض لكنه ليس محرماً، ثم نظر الى الملاّ وقال، هلا تكرمت يا أستاذ وقلت

لنا كم مرة حدث الطلاق في مجتمع صحابة رسول الله؟ ثم التفت الى المجلس وأردف : ايها الاخوة، ابنتي حاولت الانتحار حرقاً، فوالله لو طُلقت فان ذلك أشرف لنا جميعاً من الحرق ويرضي الله ورسوله أكثر وإلا لأجازا الانتحار.

وهكذا واصل شاهين حديثه بهدوء وبد ون أن يتيح للآخرين الفرصة وأ

فرغ كل ما كان في صدره.

زاغت عينا الآغا في محجريهما، واخذ كل واحد يدلي برأيه من مكانه وهم يوغرون صدر الآغا اكثر .. وكما في المرة السابقة نهض شاهين و غادر المجلس دون استئذان أوتحية وداع وعند الباب انتعل حذاءه، كان الحارسان يقفان عند الباب كتمثالين في معبد فرعوني، نظر الى شواربهما واحزمة الرصاص حول خاصرتيهما وقال بصوت يمكنهما سماعه:

- سيدي، ثراؤك من فَقرنا وبطولتك من جُبننا وعظمتك من بؤسنا، طالما كان هناك حمير فأنت باق!

بخطوات ثقيلة وبمساعدة عكازه انحدر في الشارع الذي كان يضم على ج انبيه قصوراً وقلاعاً مبنية بالمرمر وسط حدائق واسعة وامام أبوابها تقف آخر موديلات السيارات وهي واقفة بصمت كعروس تحت طرحتها . وكدقات ساعة بيك بن كان صوت نقر عكازة شاهين يمزق ستارة هدوء الليل وسكونه.

- ياسين تعال.

جاء الخادم الواقف امام الباب وهمس الآغا في أذنه " تذهب الان ولا تعد دون عَبدي"

* * *

كان الآغا كالذي يشكو ألماً في ضرسه لا يهدأ في مكان وهو يذرع ارض الصالة يكلم نفسه "عَبدي الغبي، لا يصدق متى أطلب منه أمراً، ابن الكلب كم تروق لقامته الطويلة المرصوصة بدلة البَركيز، في الاماكن التي لا يعرفونه فيها، يظنه الناس هو الآغا!"

- سيدي انه عبدي، هل يدخل؟

- عبدي!؟ فليدخل.

رحب به بحرارة وأفرد له مكاناً بجانبه وعبدي يكرر اثناء الحديث "سيدي... خادمكم أنا"

- منذ اليوم الاول لالتحاقك بالفوج في (رواندوز) توسمت الرجولة والاخلاص في عينيك، لذلك اخترتك ضمن قوة حمايت ي، واليوم ايضاً لولا إكراماً لخاطرك..... ولزم الصمت.

كانت لكلمات الآغا تأ ثير السحر على عبدي وتبعث فيه شعوراً بالنشوة، وكان ينتظر، ساكتاً، فراغ الآغا من حديثه.

- عمك الحاج شاهين.. لقد أغضبني كثيراً.

- الحاج! ما باله؟

- قضية ابنته، كنّة صبري .. أود ان تقنعه، وانا واثق من انك تستطيع، تكلم معه، لانه اذا طُلقت سيكون عاراً علينا جميعاً.

- سيدي.. سأتحدث هذه الليلة مع الحاج.

- هذه المرأة ستجعلنا أضحوكة في المدينة.

- عهد علي اذن أن أُفرغ هذا المسدس في رأسها.

ووضع يده اليمنى على نطاق خاصرته.
جاء ياسين ووضع قدحين من الشاي على الطاولة، كان الآغا وعبدي مشغولين بالحديث
- كن متأكداً يا سيدي بان الحاج سياتي الى هنا طالباً السماح منكم.
- انا متأكد يا عبدي، لانني أعلم جيداً انك لست ذلك الرجل الذي يقبل الخنوع على نفسه.
وطبطب على كتفه.

* * *

قبل ان يهبط الظلام كانت مداخل صالة الاعراس تعج بالبشر والسيارات.
- ساذهب الى بيته ربما كان قد عاد من اربيل، لا تغادر حتى أعود.
كان كوفان يحدث آزاد عندما خرجت كومة شباب من القاعة واثنان منهما يتبادلان أقذع السباب، والبعض يحاول فض اشتباكهما فيما ا لآخرون يقفون متفرجين .. اجتازهما آزاد . على مقربة منهم كان رجلان يودِعان بعض النقود في مظروفين وأحدهما يقول للاخر "والد العروس ينهب والد العريس وهو يأخذ منه المهر ووالد العريس ينهب الناس بتوزيع كروت دعوة العرس"

- كل هذا العدد من المراهقين والمراهقات في القا عة لو كان بعددهم دجاج في قن لتناقروا.
- اسرع لنذهب ونبارك للعريس ونبتعد من هنا قبل أن تتحول القضية من شجار بين مراهقَين الى عشيرتين بطلتين..!
في حديقة اتحاد الادباء كانت الحلقة نصف الدائرية في نقاش ساخن حول موضوع (التجديد دوماً) وموقف الاخرين الذين يهاجمونه بإسم الدين والعشيرة، الكل متفقون بالضد من المجموعة واعضاء مجموعة التجديد في محاولة يائسة للدفاع عن توجهاتهم:
- ماذا تقول أنت يا آزاد؟... سأل المتحدث باسم المجموعة.
- التجديد حراك، يعني الحياة، والسكون إن لم يكن موتاً فهو سبات. وفي الحقيقة فان جنبات هذه ا لامة قد فسدت من كثرة النوم.. تطلع الى الحاضرين وأردف: ليكن لديكم عقلَ عربيٍّ عاشَ قبل الف عام، دعوهم اذا نجحت تجربتهم فسيكون ذلك انتصاراً وفخراً للكاتب الكوردي، وإلا فانهم سيتحملون العبء لوحدهم.
مر بطاولة كان يجلس اليها اربعة اشخاص يلعبون الدومينة، جلس آزاد وكان النقاش حامياً، قال آزاد:
- من منكم سيقنع الآخر؟
وكان كل طرف يدافع عن افكاره وتوجهاته... قال آزاد:
- استاذ، أحدهم نتاج فكر حسن البنا والآخر ماركسي والكوردايَتي ليست في القائمة.. انها نفس دوامة الاباء والاجداد.
- وماذا كان لدينا نحن الكورد؟
- لماذا؟ اذا كان المفكرون الالمان هم الاباء الروحيون للفكر القومي، ألم يكن أحمد الخاني قبلهم؟ في البداية العثمانيون

والصفويون والكوردايتي لا، وبالامس التَكْية والديوان والكوردايتي لا، واليوم الاسلامية والعلمانية وايضا الكوردايتي لا، وإلى متى !!؟ بالامس كانوا يحكمون وهم أحياء، واليوم حتى وهم تحت التراب يحكمون!!

ونهض... كانت أفكار آزاد مشتتة، لم يشعر الا والساعة تشير الى الحادية عشرة، تطلع حواليه كانت الموائد عامرة بكؤوس العرق والبيرة. امام التلفزيون جلس احدهم وهو منهمك في الكتابة .. لملم أوراقه واتجه صوب آزاد:

- مساء الخير استاذ.
- مساء الخير، تفضل.
- شكراً استاذ... وجلس.
- تتاخر هكذا دوماً؟
- كلا.. اليوم أنا ضجر.
- من ماذا؟
- الكآبة.. من الافضل ان أجلس بين الناس دوماً.. وانت؟
- انا في إنتظار صديق.
- وحتى يعود، هل اقرأ لك هذه القصيدة؟
- طبعاً يسرني الاستماع اليها، أُنظر الى ذلك الشخص الذي يتنقل بين الموائد وهو يحمل في يده قنينة عطر يرش بها على الجالسين أو يوزع الزهور، لا يتأخر عند الموائد ولا يطلب حسنة، واذا لم يعطوه شيئاً لا يغضب، يدور في كل ليلة على كل بارات ونوادي المدينة مشياً على قدميه، حقاً إنسان ملفت للانتباه. لا اعرف كيف، لكنه يضفي شيئاً على هذه المدينة، يعطيها ألقاً ما.

وصل الى مائدتهما ووضع امام كل واحد منهما زهرة . كان جو الحديقة منعشاً على العكس مما كانت عليه حرارة النهار، لكن نسيم الهواء المنعش المنسرب من فتحة الوادي لم يكن ليخفض مؤشر الضجر لدى آزاد منذ أن علم بذهاب والده الى ديوان الآغا.

- كمال ألن تقرأ قصيدتك؟

- استاذ قصيدتي تقول:

-١-

من مثلنا ثري
لو كان لدى الناس
إله واحد
الفٌ منها
لدي أنا وحدي

-٢-

عشق الانبياء وكل الاولياء
ليس لها أثرْ
إلا عشق مَلكْ
في كبد الثلج يبدو كالجمر
وفي قلب النار
مَصيفٌ دائماً اخضرْ
لو ان ورثة الانبياء

لا يتحولون الى مخالبَ وانيابَ للزعماء
لن يغدوَ العبادُ قمحاً وحباً
لكل الحاصدات والرحايا
عندها فقط يجلس الاغوات والرؤساء
مكان الرب ويصبحون مراجع
لكل القوانين
للحياة كلها
وللمصائر
- سلمت يداك.
ظهر كوفان عند الباب، اشار اليه آزاد.
- مساء الخير اخ كمال.
- مع السلامة استاذ...
كان كمال يتابعه بنظراته حتى الباب والابتسامة لا تفارق شفتيه .. شعر بعد قراءته القصيدة ان حملاً قد انزاح من على كتفيه قال في نفسه "ذو الاسنان المتسوسة كان على حق عندما قال : من لا مال له ولا أقارب الافضل ان لا يمكث ف ي كوردستان. أحدهم يطبع عدة كتب في سنة واحدة وأنا مثل الشاعر أحمد نالبَند الذي توفي ولم يتحقق حلمه برؤية بيت واحد من شعره منشوراً على صفحات الجرائد"

* * *

كان يتحدث في الهاتف مع شيرين وعينه على الاستاذ سلمان الذي كان ينظر الى الشباك وبين يديه القلم وأوراق الامتحانات، فيما الاستاذ هوشيار يحرك الشاي بالملعقة، لحظتئذ جاء صوت إرتطام نعلين بالارض.

- ها قد جاء الموعود بالجنة... قال هوشيار وهو يضحك.

دخل الاستاذ نعمة الى الغرفة ومن الباب الاخرى دخل الى المرافق الصحية.

- من المدير ... حتى الفراش، يجب ان يعلم الجميع بان الاستاذ نعمة سوف يصلي... ووضع سماعة الهاتف.

- لا تشغل بالك فنصفُ الالف خمسمائة.

- استاذ سلمان كنتَ لا تعطي أحداً الفرصة للتحدث، واليوم صامت، خيراً!

- دعوني وشأني.

جلس آزاد الى جانبه.

- ما الذي حصل؟

- الحمار، شقيقي.. يبدو أنه أصبح تقليداً، اذا كان عازباً فالامر هين، ولكن زوجة وكومة أطفال ! ماذا افعل بهم؟ انا لا أتمكن من إعالة عائلتي. باع الدار وحصته في الدكان ودون أن يُعلم أحداً بالامر، إتصل بنا من (أثينا) حسناً ما الذي كان ينقصه؟

- كم طفلاً لديه؟

- سبعة.

- حقه إذا هرب.

- ماذا؟ ممن يهرب؟
- استاذ سلمان، مَن نخدع نحن؟ المرأة التي لديها سبعة اولاد، الرجل يهرب من ذلك البيت وتلك الزوجة، والذين لا يهربون الى الخارج يتزوجون امرأة ثانية.
- وما ذنبي انا؟
- الذنب ذنبنا جميعاَ، نحن نعرف الحقيقة ولا نفعل شيئاَ، لقد تنازلنا عن الكثير من الضروريات مقابل لا شئ.. الرياء او....
وجاء صوت خفق نعلي نائب المدير مرة ثانية.
- النفاق... وأشار هوشيار صوب المرافق الصحية.
- وانت يا آزاد أين كنت طوال اليومين الماضيين، لقد هلكنا في هذا القيظ بأمور الامتحانات وتصحيح الدفاتر.
فتح آزاد الجريدة التي كان يحملها بيده .. بيَمان.. العدد الاول والمانشيت الرئيسي (نريد الماء والعدالة)
- تترك عملك وتركض وراء صحيفة؟
- كلا كنت اتابع أحد المتظاهرين.
- كانت مخالفة كبرى... قال سلمان بانزعاج
- المشكلة تكمن في أن بعض المخربين إندسوا بين المتظاهرين فاختلط الحابل بالنابل.
- ماذا؟
- أهالي (بروشكي) نظموا مظاهرة بسبب شحة الماء، ورغم بعض التطاول بالكلام إلا ان السيد المحافظ والقائمقام تصرفا بهدوء وحكمة، وانفضت المظاهرة، لكن بعد أقل من ساعة بدأ النهب والتخريب.

- المتظاهرون ايضاً تجاوزوا حدود الغضب.
- حقهم استاذ هوشيار، لو وضع أيّ واحد منا نفسه في مكانهم... المرأة تضع صفيحة الماء على كتفها وتعبر الشارع العام في هذا الصيف اللاهب، وبعض المنفلتين الذين حصلوا على سياراتهم بالمجان يدورون في شوارع تلك المنطقة يزمرون ويعربدون ويعرضون حياة النساء والاطفال للخطر ... كيف تريد ان يكون موقف أزواجهن وآبائهن واخوانهن، هل نساء الاخرين عاهرات؟
- ما علاقة كل ذلك بعدم مجيئك؟
- شقيق صديقي كوفان كان معهم، المشكلة ليست في انه إعتقل ولكن في طريقة الاعتقال، الكورد انتفضوا ضد النظام كي لا يُعتقل ابناؤهم على طريقة زوار ما بعد منتصف الليل الذين يُخرجون الناس من بيوتهم عنوة!
- الكورد يفعلون ذلك؟ أكاد لا أصدق!... قال سلمان.
- كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، كانوا ثلاثة يستقلون سيارة أولدزموبيل.. كوفان تعرّف على أحدهم.
- من كان؟
- حميد أفندي.. تصور، نحات واعتقال الناس!!
- عجيب أمر هؤلاء الناس... دخل وهو يصفق بكفيه.
- ماذا هناك استاذ هوكر؟... قال هوشيار.
- إمشي أمامه يعضك، إتبعه يرفسك!
- هل هي التربية كرّة اخرى؟
- ليتها كانت التربية، استاذ آزاد، أحزابُنا .. إن التحقت بحزب أصبحت عدواً للآخر، تبقى مستقلاً.. ها ألا يُعجبك أحد!

- تعال اجلس ... ووضع سلمان حزمة أوراق بين يديه ... إجمع النقاط، نحن مثل ذلك الشخص الذي كان مسجوناً في زنزانة تحت الارض وكان يرى النور من خلال كوة صغيرة، وفجأة وجد نفسه في الخارج حراً طليقاً في فضاء واسع مفتوح وضح النهار . ذو التسعة أشهر سيعيش، الآخرون إما سيجهضون أو في أحسن الاحوال سيولدون معاقين..الوطن يمر بمرحلة مخاض.

عاد الاستاذ نعمة وأطراف بنطاله وقميصه مطوية الى الاعلى.

- يا عمي قوموا وأدّوا ركعتي صلاة وأتركوا السياسة لأهلها.

- سياسيونا غدوا تجاراً ولا يجوز ترك الميدان مقفراً ... رد عليه الاستاذ هوشيار بشكل قاطع.

- الدنيا زائلة، مآبنا الى القبر المظلم.

- إنتظر استاذ، لنجري معاملة بيننا، إعطني كفك . أنا أتنازل لك عن حصتي من القصور والحوريات، ومقابل ذلك تعطيني أنت بيتاً متواضعاً في (بروشكي) وتلك الفتاة التي كانت بصحبتك في ذلك اليوم!

إرتد الاستاذ نعمة كمن صعقه تيار كهربائي، سحب يده وعند الباب التفت الى هوكر وقال:

- تلميذ ابليس، أيها الشيوعي الكافر.

- والله لقد دمغته بكَوية معتَبَرة ... قال سلمان وضحك الثلاثة من أعماقهم.

- أية حرباء هو . بالامس كان الرفيق المناضل ويسوق الناس الى المسيرات الاجبارية، واليوم كوردي وطني وأمور المعهد في يديه والموعود بالجنة الذي له حصة في بركات وخيرات الاسلامويين.

٩

كان حجّي جالساً في قاعة الانتظار في الدائرة وهو ينظر الى الساعة المعلقة في الحائط، كان العقرب الكبير يقترب من الثانية عشرة لكي تعلن الساعة العاشرة صباحاً، بعض الموظفين لم يحضروا لحد الان بالرغم من ان الدوام يبدأ في الثامنة حسب التوقيت الصيفي، فالسنة كانت قد قُسمت الى نصفين، نصف لأحياء انتصارات الرئيس المنصور دوماً ونصف للعمل، والكورد أيضاً قسموا الأخير الى نصفين...

دخل من البوابة الرئيسية واستقبله الفراش:

- تفضل، استاذ ئيسف، على الرحبة والسعة.

- هل جاء الاستاذ دَشڤي؟

- على وشك الوصول، تفضل لأجلب لك شاياً قندهارياً وقبل ان تكمله يكون قد حضر.

- حسناً... ولمح حجي جالساً فقال له بسرور ... كيف الحال حجي، ماذا تفعل هنا؟

- لقد اشتريت بيتاً في (شيفَشوركي) وجئت لتسجيله... قال ذلك بعد ان نهض وصافحه.
- اين؟ شيفَشوركي! بالله عليك وهل يدفع المرء مالاً مقابل أوحال ذلك الحي؟
- حقك، نسيتَ الامس... الكثير من امثالك هبط عليهم الحظ، نام جائعاً دون عشاء وبقدرة قادر استفاق وفي فمه ملعقة من ذهب، لكن انا لن أنسى مطلقاً ذكرى علبة سجائر فكتوريا.
- ماذا كانت تلك الذكرى؟ تساءل ئيسف ضاحكاً.
- كان الوقت عصراً، طلب مني صديقي نجم سيجارة وكانت معي خمسة دنانير مفردة فقط، قلت له " فطور بناتي أهم من السيجارة، ولكن البقّال لا يبيع ثلاث بيضات بخمسة دنانير مفردة" سحب نجم الدنانير الخمسة المفردة من يدي واستدار عند المنعطف، وعاد بعد هنيهة ووضع في يدي ورق ة نقدية واحدة من فئة خمسة دنانير وعلبة سجائر فكتوريا وقال لي " من يحمل الهموم كثيراً، ستقتله"
- صحيح ولكن لا ضير من الزيادة، اذا قبلت ان تشتغل معي ستنتقل من شيفَشوركي الى حي المترفين والاثرياء واللاندكروزرالمهترئة ستنقلب الى مارسيدس.
- لاشئ دون مقابل، أن تكسب شيئاً مقابل ان تخسر شيئاً أكبر، طالما بقيت اتذكر ما قاسيته من أهوال خلال ثمانية اشهر وانا برئ فانني حتى وان نويت حج بيت الله فسأبعث واحداً آخر مكاني ..
وهنا قطع صبري حديثهم:
- خيراً بني، سألتَ عني؟

مد ئيسف يده الى جيبه واخرج منها حزمة نقود سحب من بينها ورقة واحدة من فئة مائة دولار واودعها يد أبيه وقال:
- غداً الجمعة وسأسافر جنوباً، اذهب الى ميدان بيع الغنم، إشتر أفضل كبش...
لحظتذاك دخل دشتي:
- اين أنت يا ئيسف!
- كنت في انتظارك استاذ...ثم التفت الى حجي... انا في الداخل اذا احتجت شيئاً.
ثم دخل الاثنان . كلن حجي ينظر اليهما وهو يقول في نفسه "إن غداً لناظره قريب"
جلس دشتي خلف مكتبه، كان هناك موظفان آخران في الداخل وقد ضاعا بين الاوراق والاضابير، وبتحية اكثر برودة من الابتسامة التي تصنّعها دشتي على شفتيه وهو يدخل، رحب به الاثنان.
- الذي كان يوزع نصف راتبه على سداد الديون، اليوم اشبه بسلطان. لنر ما الذي سيفعله المدير الجديد الذي قال في اول اجتماع له معنا "هناك الكثير من الانتقادات على هذه الدائرة، لن أرحم من يخطأ، دليل واحد وسأودعه خلف القضبان" لكنه لم يفعل شيئاً حتى الان.
كان الموظف الهرم يوشوش لزميله.
وقف الفرّاش في الباب وبيده إستكانات الشاي وقال:
- استاذ دشتي، المدير يطلبك.
عدل من وضع ربطة عنقه، مسح شواربه الرفيعة باصابع يده وبمنديل ورقي مسح حذاءه من الغبار.

- اريدك ان تكمل هذه المعاملة اليوم...
كان صوت المدير الغاضب يأتي من وراء الباب وهو يتحدث معه. وعندما عاد كانت خطواته مرتبكة، مضطرب وقد تغير لون وجهه، بهلوانُ السيرك جلس خلف مكتبه، اخذ يفكر وسرعان ما قال لئيسف:
- انتظر هنا، سأعود في الحال.
مرت نصف ساعة عاد بعدها وكأن شيئاً لم يكن، جلس على كرسيه يهز جسمه مزهواً كالطاووس . قال الموظف لزميله "غريب، انه غيرُ ذلك الذي خرج قبل نصف ساعة، ترى ما الذي حدث؟"
وضع دشتي المعاملة أمامه وجعل يقلب أوراقها برؤوس اصابعه، فجأة دخل المدير، نهض الجميع تحية له.
- دشتي! اين تلك المعاملة؟
- نعم استاذ، انها جاهزة... وقدمها له.
قلب المدير اوراق المعاملة وتمتم وهو يبتسم "جيد! من الناحية القانونية لا غبار عليها، لقد تمكن ذلك الموظف من تزويرها بمهارة، فلتحفظ، لقد ذهب الى دار حقه وحسابه عند ربه"
كان الموظفان يصغيان السمع، ولما خرج المدير كان احدهما يقول للاخر:
- من يقصد؟ من ذلك الذي زور؟
- ذلك الذي كانت زوجته تدور في حقول الحنطة وتركض و راء ماكنات الحصد لتلتقط السنابل المتروكة، ولولا إعانات الاغاثة الاسلامية لكانت تقف في أبواب الجوامع تستجدي أو.....

تنهد دشتي من أعماقه كالذي إنزاح عبء ثقيل عن كتفيه، قال الموظف الجالس قبالته:
- خيراً ما الذي كان يريده السيد المدير؟
- لا شئ، كانت معاملة قديمة.. المرحوم.. رحمه الله وجعل فرقة حوريات من نصيبه.
قال ببرود ثم خرج هو وئيسف . تطلع الموظفان في بعضهما "المرحوم!.."
- ارجو ان تُفهِمَني، ماذا كان ذلك؟ قال ئيسف لدشتي وهما يخرجان.
- لم يكن شيئاً ذا أهمية (الجرّة الجديدة ماؤها بارد) فقط! ذهبت الى الاستاذ، تكلّمَ مع المدير هاتفياً فخفض مؤشر الحرارة لديه!
ضحك الاثنان، قال ئيسف وهو يروم جرّه الى الحديث والتأكد من الأمر:
- علمتُ أن اخته متزوجة من أبو زاكروس، الحسناء الشابة في ظل الاسد العجوز!
- ماذا تعتقد، أنه وصل الى كرسي المدير بامكاناته الذاتية؟ الحمار كان يوقّع أسفل إسمه! لذلك اضطُررت الى إعادة تنظيم معاملات اسبوعٍ بكامله ! يا عزيزي الكوردايَتي فريسة ووقعت، الاسود والنمور حظيت بالقلب والكبد، الذئاب نهشت اللحم الطري، الثعالب لحست العظام، والغربان أمثالنا تتقاتل وتدمي رؤوس بعضها على الجلد والاحشاء القذرة!
- أنت غراب! أنت حوت يا دشتي.
ضحك دشتي بفخر.

- استاذ ارجوك ان تساعدني في المحكمة.
- كن متأكداً، نحن ذاهبان من أجل ذلك واذا لم يرض، يكفي هاتف واحد من الاستاذ.
- لقد رشوت حتى الآغا، وأريد أن يكون رأس هذا أكبر حتى من الآغا نفسه، ولكن لا أعتقد انني سأجد كبشاً يليق به!
- إنه يبيع أبوه مقابل تيس. ما بالك إذا وجد كبشاً أمام باب داره في صباحِ يومِ جمعة، الرشوة تلين الصخر... وضحك من أعماقه.
كانا يتفاديان لسع لهيب الشمس بالاحتماء بمظلات المحال على جنبات الشارع وعند مرطبات (زَري) دلفا الى الداخل.
- أعان الله البدينين ... وفتح زرين من أزرار قميصه وهو يقف امام المبردة الهوائية. وبينما هما يتناولان المرطبات:
- اين تذهب ئيسف؟ تعيش وحيداً، تعال معي، سنكون الليلة ضيوفاً في سهرة لا تنسى.
- اين؟
- بيت الحلوة!
- من هي الحلوة؟
- لا تكن ذواقاً منتقياً وإلا ظللت جائعاً.
- فقط لكي أعرف من هي.
- انت لن تصاهرها، محسنة تفعل الخير وقد دعتني الى ضيافتها وأنا بدوري ادعوك للضيافة . هناك سوف تراها وترى كيف أن الذين كلماتُهم جواهر في الاماكن العامة يميطون اللثام عندها ويتحولون الى حمير وينهقون.

في السوق عند الغروب ومن محل الى آخر كان البخيل يصرف بسخاء حتى امتلأ صندوق السيارة.
- لم كل هذا؟ هل ستؤسس حزباً؟ لحم ودجاج، خضراوات وفواكه وعشرة أنواع من الحلويات و.. و....
- عفارم عليك ئيسف، لقد ذكّرتني، المكسرات والببسي ناقصة.
- عندما يدفع الرجل بسخاء، حذاري فإن المسألة فيها امرأة!
- امرأة! من المؤسف ان تُدعى كل انثى امرأة، هذه اكثر من مجرد امرأة، هذه ملكة .. ملاك! كلما شرب المرء منها عطش اكثر، لا ادري هل هو ماء بحر أو دودة قمار؟
كان دشتي يسوق السيارة وهو يصف جمال المرأة تلك وئيسف يحاول ان يرسم لها صورة في مخيلته . توقفت السيارة عند سفح الجبل امام باب احدى الدور، أخذ يطرق الباب برأس مفتاح السيارة كطائر نقار الخشب . فتح الباب رجل بحزمة شوارب مفتولة، اشقر الشعر مفلطح البطن.
- اهلاً وسهلاً استاذ دشتي.. مرحباً بك.
- شكراً خورشيد، هذا ئيسف، انه صديق عزيز ... وعرفهما على بعض.
في الصالة الصغيرة التي رتبت بعناية فائقة تنم ع ن الذوق الرفيع لصاحبة البيت . إتخذا مجلسهما وكان خورشيد يتصنع الضيافة بشكل مبالغ فيه، فجأة تذكر ئيسف "إنه ذلك الرجل الذي التقى بدشتي ذات مرة عند دوّار أحمد الخاني وانتبذ به جانباً يحدثه بعد أن أخذ منه ورقة ! وعندما عاد دشتي قال لي : المعيشة اصبحت

صعبة، لكن خو رشيد يعرف كيف يتدبر أموره، آغا .. أفضل معيشة ولا يعمل شيئاً!" في ذلك اليوم لم يفهم ئيسف.
- مرحباً بكم، على الرحب والسعة.
- الصوت الانثوي الرقيق جذب اهتمامه، وعندما دخلت ظلت عيونه معلقة بقوامها الطويل الممشوق، عيون غزلانية، انف دقيق، شفاه وردية وصدر ناهد، كل ذلك شكّل لوحة نابضة بالحياة رسمت بريشة فنان في غاية الابداع . لقد صعقه جمالها، جلست جوار دشتي، انها فعلاً كما وصفها له دشتي . دخل خورشيد يحمل قدحين من الماء، ناوله دشتي مفاتيح السيارة:
- هناك بعض الحاجيات في السيارة.
كان خورشيد ينقل الحاجيات الى المطبخ والح لوة ودشتي يتبادلان الحديث. عرف من خلال كلامهما أن إسمها جميلة وتعمل مع دشتي في نفس الدائرة . تأخذ الدولارات الى الموصل ومن هناك ترجع بالذهب . ومنذ فرض الحصار الاقتصادي على العراق نتيجة لغزو الكويت وحتى اليوم ارتبطت قيمة صرف الدولار هنا بالاشاعات والاخبار، لذ لك فهو في ارتفاع وانخفاض مستمرين، والوضع هذا قسّمَ المجتمع الى شريحتين .. ثري ويشتري حتى البشر .. فقير معدم ويبيع حتى المقدسات . فايروس خبيث لذلك المعبود الذي يقال له المال، ينتشر في الدورة الدموية للمجتمع . وأثرياء الكورد ليسوا برجوازيين بقدر ما هم مصاصي دما ء، كماكنة حصد الحنطة لا يشبعون من ابتلاع كل شئ، يرعون في كوردستان وفي عواصم دول المحتلين او دول الغرب يحلبونهم.

دخل خورشيد وأعطى المفاتيح لدشتي الذي التفت بدوره الى جميلة:

- جلبت كل ما هو ممتاز ومنتقى، حان دورك الان لكي ترينا براعة ومهارة يديك الذهبيتين في إعداد عشاء فاخر يليق بالضيوف، الاستاذ أيضاً سيحضر.

- على عيني ... والتفتت الى خورشيد الواقف بالباب ... هيأ الاغراض حتى آتي.

مد دشتي يده الى محفظة نقوده وسحب منها ورقتين من فئة مائة دولار:

- تفضلي هذا نصيبك.

تناولتهما جميلة، أمسكت بهما من طرفهما ورفعتهما:

- فقط ورقتين!

- لا تكوني جشعة، عملك كان الاسهل بين الجميع ونصيبك الاكبر، لقد عبر نقطة التفتيش معك بصفته زوجك ليس اكثر...

لفت جميلة الورقتين كالسيجارة وخبأتهما في حمالة صدرها . كان ئيسف مستمعاً ومشاهداً فقط، وعلم من خلال احاديثهما أن دشتي والاستاذ، المتواري حتى الان، يملكان محلاً للصياغة ومكتباً في البورصة، والله وحده يعلم ماذا يفعلان وماذا يخططان خلف ستارتيهما، وبيت جميلة هو افضل مكان للاجتماع وتمضية الليل والسهر بعيداً عن أعين الحساد في هذه المدينة الصغيرة التي تجعل من الحبة قبة . كان دشتي يتكلم وجميلة تستمع و هي ترنو ببصرها الى ئيسف ... شاب في مقتبل العمر ورائحة الفحولة

تتطاير منه، كانت عيونهما تتبادلان الرسائل . وفجأة تذكر دشتي شيئا وقال:
- اعرّفكما ببعض.. وأشار: ئيسف، جميلة.
شعر ئيسف بيد جميلة وهي تضغط على كفه وابتسامة طفل في صباح يوم العيد ترتسم على شفتيها، ا حس بالحرارة وازدياد نبضات قلبه كمراهق خجول يتكلم مع انثى للمرة الاولى في حياته، خلال تلك اللحظة القصيرة نضح بالعرق.
- جميلة، اذهبي غداً انت وخورشيد الى الموصل، طائرات قوات التحالف قصفت عصر اليوم أحد المراكز، وأحزاب السلطة في كوردستان بدأت بشن الحملات الاعلا مية ضد بعضها، الامور تتجه الى جولة إقتتال اخرى في الـ (كَبك) وعلينا انتهاز الفرصة والاستفادة منها.
قرع الباب، ذهب خورشيد لفتحه، جاء صوته وهو يقول:
- أهلاً وسهلاً استاذ، تفضل يا مرحباً بك.
كان صوته مرتفعاً وكأنه كان يريد إعلام الذين في الداخل ويبشرهم بقدوم الاستاذ. نهض دشتي، عدل من وضع ربطة عنقه وتهيأ، وعندما دخل الاستاذ لم يصدق ئيسف عينيه:
- أوووه.. الوطني صاحب المسبحة الطويلة!
رجل كهل لكنه ما زال محتفظاً بقوته وحيويته، مرصوص كجذع شجرة، لا تفارق السيجارة شفتيه، الحوت الذي وضع مصلحة الشعب فوق كل شئ وغرز هو مصلحته في صدور الشهداء!

١٠

- يجب ان لا ندع هذه الفرصة تفلت من أيدينا، العولمة جاءت لصالح الامم المضطهدة، الحدود لم يعد لها قدسية أيام كان العالم ثنائي القطب، وبالهجرة المليونية استطاع الكورد ان يكسبوا قراراً أممياً بالتدخل الدولي لصالحهم . الامبراطورية والدين، الاستعمار والاشتراكية، كلها جاءت وذهبت، استفاد منها الناس . واليوم اشرق فجر جديد في عصر مختلف ويجب ان لا نخرج من هذه المرحلة دون دولة كردية، وبناء الدولة يتطلب الكفاح والعمل، والشطارة ان يصنع الانسان من الحصرم شراباً حلواً . اننا عندما ندير انفسنا بانفسنا في بُركة الشرق الاوسط العكرة إنما نشبه ذلك الذي ينحت في الصخر، والاخوّة ألهة لم يعد الكورد مستعدين لتقديم القرابين لها، السرُّ النتن انكشف، ورائحة العفونة غطت أرجاء الدنيا، طالما ليست هناك دولة كردية فان ابو مسلم سيظل مرجوماً وصلاح الدين على جبل صهيون مصلوباً، الله لم يكن لديه شعب مختار ولن يكون.....

نقر الفراش على الباب:

- استاذ، مكالمة لك.

وفي غرفة المدير..

- آلو؟

- .....
- صباح الخير شيرين.
- ....
- على عيني، في اي وقت تشائين.
- ....
- نصف ساعة وأكون عندك.
- ....
- مع السلامة.

كان يمشي وصورة ش يرين ولقاؤهما في الامسية الشعرية والمرات التي تلتها كانت حاضرة في خياله وقبل ان تأخذه الذكريات بعيداً قال مع نفسه "ربما كان من أجل نسرين، أو أمر يتعلق بموضوع أدبي. لا، لا يا دلبَر كل ذلك الحب... لا أدري هل الحب اكذوبة أم انني أخطأت الاختيار ياترى؟"

وفي الاستعلامات:

- طاب يومك، هل الانسة شيرين موجودة؟
- الاستاذ آزاد!... قالت موظفة الاستعلامات بابتسامة دبلوماسية... نعم في الطابق الثاني الغرفة الثالثة الى اليمين.

كانت شيرين في انتظاره عند باب غرفتها، استقبلته بحرارة ورحبت به. كانت قد لمحته من خلال النافذة الم طلة على الشارع وعندما دخل البناية اتصلت بزميلتها في الاستعلامات واعلمتها بالامر. فور جلوسهما وقبل اي شئ آخر سألته:

- كيف هي نسرين؟
- بخير، تسكن مع كولجن في دارها حتى صدور قرار المحكمة.

- أريد رأيك.. لقد جاءوا لخطبتي!
قالت شيرين مبتسمة بحياء.
- ماذا؟ خطّابة!... حاول ان يبدو غير مكترث ... تلك حياتكِ وانت وحدك لك حرية الاختيار.
- يعيش في اوروبا، من مهاجري عمليات الانفال، اصيبت زوجته في القصف الكيمياوي وتوفيت هناك، لديه طفلان . وما عدا كيلوغراماً من الذهب فانه سيدفع المهر بالدولار .. مشترٍ جيد ! اعتقد انه سيعثر على واحدة من ثوبه لا تصدق أنها حظيت به.
- انتِ ترفضيه منذ البداية، تمهلي ربما غيرت رأيك.
- لقد قررت منذ زمن، بالكوردية انا لست للبيع.
لم يكن آزاد ليتمكن من المقارنة بأي شكل من الاشكال بين شيرين ودلبَر، متباعدتان جداً، احداهما مقلدة والاخرى تختار . كان كلما تذكر دلبَر أحس بالانكسار ولكن هذا الاحساس الذي فتر بمرور الزمن بدأ يتخلص منه تماماً. تذكر دلبَر والحب من النظرة الاولى، عندما زار شقيقَه مجيد في سجن (بادوش) بالموصل في السنة الاخيرة من حرب الاعوام الثماني، في وقت كان قد صدر قرار من القيادة العراقية بإعدام ا لهاربين. وهناك بعث أحد المسجونين رسالة معه الى أهله، وكانت دلبَر هي من فتح الباب له.
- برأيي ان الرجل والمرأة هما اللذان يبنيان الحياة، لذلك قررتُ أن لا أتزوج حتى أتمكن من إختيار شريك حياتي.
كان آزاد يصغي فقط، ويحتسي الشاي.
- ما زلتَ تفكر في دلبَر؟
- نعم... قالها هكذا ببساطة.

امتعظت شيرين كثيراً من كلمة نعم، وحاولت ان لا يبدو عليها ذلك... أردف آزاد:
- نعم، لن أنسى دلبَر ابداً، ستبقى في ذهني كذكرى ولكن دون تأثير.
- اذا كانت بلا تأثير، لماذا انت وحيد حتى الان؟
- انت اجبتِ عن ذلك قبل الان، أريد أن اختار، لأن إختيار الشريك بحد ذاته هو اختيار للحياة.
- انا سعيدة لاننا متفقان.
أحس آزاد أنها تقول له، هذا الخاطب الاوروبي وقد رفضته وليس كل البنات مثل دلبَر، هيا تفضل فالطريق باتت سالكة.
- قل شيئاً.
- لا أعرف شيرين، لا تحضرني كلمات معبرة.
- دلبَر كانت ساذجة، لو كانت تدري بكل حبك هذا، لا اعتقد انها كانت ستبدلك بكنوز الدنيا، ولكن شكراً لها وإلا لما كنتَ اليوم موجوداً هنا.
كانت الساعة تشير الى الواحدة عندما بدأ الموظفون ينسحبون رويداً رويداً الى الخارج وهما جالسان، كانا قد نسيا تماماً الوقت والناس حولهما... طرقت مارلين الباب:
- عفواً، لكن الباص سيفوتنا.
خرجا سوية، وكان باص نقل الموظفين يتأهب للانطلاق.
- عفواً آزاد لكن الوقت مر بسرعة دون ان اشعر به وقد تسببت في تأخيرك.

- ارجو ان لا تقولي ذلك شيرين، انا ايضاً كنت في حاجة الى التحدث لشخص، مع السلامة.

انطلقت السيارة وهو يتابع ها بنظراته ويقول في نفسه "انت لم تشعري بالوقت فحسب أما أنا فلم أكن اشعر بالدنيا كلها"

١١

كانت سيارة الـ (كرولا) الحمراء تسير بين صفوف السيارات المتوقفة في الساحة وتوقفت أخيراً عند رصيف الشارع المطل على النهر والبساتين، ترجل منها وأقفل الباب. كانت لا تزال هناك نسمات معتدلة الحرارة . سحب نفساً عميقاً وتطلع الى مناظر البساتين والرياض والفندق الذي يشرف بطوابقه السبعة كتمثال ابي الهول على المدينة، كان قرص الشمس يتجه صوب كبد السماء. لقد اشتغل كثيراً في الايام الاخيرة لكنه لا يشعر بالتعب، وعندما قام بجولة في معارض بيع السيارات لم يستطع ان يشتري سيارة افضل من الكرولا، ها قد تحقق أحد احلامه . عندما كان طفلاً كان يصنع السيارات من الاسلاك المعدنية ويدفعها أمامه في الازقة، اليوم يقود سيارة حقيقية . كان مطمئناً يغمره شعور بالرضا. عندما تذكر زوجته نسرين قارنها مباشرة بجميلة. نسرين المتزنة بكل صفاتها، وجميلة التي تشبه فينوس، تعرف كيف تحرك وتستثير رغباته بشكل لم تستطع فعله نسرين أبداً . قال بصوت منخفض وحسرة "آخ جميلة". تطلع في ساعته، كانت تشير الى الحادية عشرة الا ربعاً وهو لم يفطر بعد.

جلس الى جوار النافذة في المطعم وطلب قلية، أخذ يأكل ببطئ ودون شهية، وفيما كان يرتشف الشاي ويدخن السيجارة كان ينظر

الى الشارع ويراقب حركة المارة . في هذه المدينة الصغيرة باتت أعداد السيارات تنافس أعداد البشر . جاء صوت صفارة شرطي المرور، أخيراً ظهر وهو يصيح على سائقي سيارات ال تاكسي ويأمرهم بإبعاد سياراتهم، ورغم أن أصواتهم لم تكن لتخترق زجاج النافذة إلا ان حركة شفاههم كانت تشي باستيائهم وهم يغادرون المكان بسياراتهم قبل ان يبتعد هو الاخر بصفيره.
وقفت سيارة مارسيدس بلوحة تسجيل اجنبية وترجل منها سيدٌ مودرن ببدلته البَركيز وسبطانة مسدس ماركة سميث مزروعة خلف لفّة نطاقه القماشي إكمالاً للديكور . كان الشرطي يبحلق فيه كالثعلب، كان يود إظهار سلطته لكنه لم يجرؤ، فقد بات من الصعوبة بمكان أن تميز بين الصايع والمحترم في كوردستان . لحظتها وقفت سيارة لاندكروزر خلف المارسيدس وترجل منها اربعة رجال، أحاط السائق والمسلحان الاخران بالذي كان يجلس في المقدمة وهم يمشون خلفه . اشاح الشرطي ببصره واستدار ومشى وكأنه لم ير شيئاً.
كان ينظر من خلال النافذة الى اللاندكروزر وعندما لمح اطاراتها اطلق صفيراً من فمه وقال بصوت منخفض "صاروخ...!" رفع الشخص، الذي كان على نفس الطاولة يتناول الطعام، رأسه وبلا اكتراث عاد الى تناول طعامه.
خرج من المطعم واجتاز الشارع نحو كازينو البليارد . جلس ثم نهض، مازال الوقت مبكراً لقدوم رفاق طاولة القمار .. اخذ يتسلى بلعبة البليارد، انتبه على صوت دقات الساعة حيث كانت تعلن الثانية عشرة ظهراً . دهوك مكان نوعين من البشر، الكادح

والمقامر. وضع عصا البلياردبضجر وخرج من الكازينو، استدار نحو سوق الاقمشة وفجأة لمح طيف جميلة وهي تعبر الى داخل زقاق السوق الواقعة مكان الاوروزدي القديم، دلف الى السوق، كانت جميلة واقفة عند احد بائعي الاقمشة الذي كان يعتمر كوفيتين ويلبس بدلة بَركيز من نوع شَـرنَـخي وكان يبدو كآغا أكثر منه مجرد بائع أقمشة . اقترب، كان البائع يمسك بذراع القياس وهو يقيس القماش، تسلل الى جانب المحل، مدّ يده وأمسك بطرف احد الاقمشة

- هل يصلح هذا القماش نطاقاً يا ابن العم؟

ومع جواب البائع، نعم يصلح يا عم، التفتت جميلة جهة الصوت وسلّمت عليه...

- شكراً، وكيف حالك انت والسيد خورشيد؟

- لقد سافر الى بغداد وسيعود غداً، وانت لا تظهر هذه الايام، أم أنك لا تسلم علينا إلا إذا كنت مع دشتي؟

- لا، لا، فليعد السيد خورشيد بالسلامة وسأزوركم.

أخذت جميلة القماش ونقدت البائع ثمنه.

- انا وأحمد وحدنا... ووضعت يدها فوق رأس ابنها ذي السنوات العشر.. وسنكون مسرورين لو تتعشى معنا الليلة.

- سأنظر في الامر، إذا كان لدي متسع من الوقت، رافقتكم السلامة.

وبعد بضع خطوات التفتت اليه جميلة:

- نحن نتناول العشاء في الساعة العاشرة.

- حسناً.

تأكد ئيسف انه تلقى دعوة .. أمسكت جميلة بيد ابنها وذهبا، تعلقت عيونه بقوامها وأردافها . أعماقه أرض يباب وقفت فوقها سحبٌ داكنة مثقلة بالمطر كخزانات إلهية، الجسد يضج برغبات وشهوات جامحة، تصرخ وتنادي .. إملأي لي كأس العشق واسقيني منه حتى الثمالة.. أول يوم يمر على ئيسف يملك فيه مالاً وهو غير جالس الى طاولة القمار . اخذ يدور في السوق ويشتري ما لذ وطاب واخيراً عرج على سوق الكماليات واشترى أفخر قنينة عطر موجودة . كان يتطلع في ساعته بين الفينة والاخرى، الوقت لا يمر وكأنّ قطعة مغناطيس تعيق حركة عقربي الساعة. وبأي حال فقد أوصل الليل بالنهار ... وقبل الموعد كان يركن سيارته أمام باب دار جميلة.

بعد العشاء كان جالساً في الصالة، دخلت جميلة وهي تحمل عدة الشاي، جلست قبالته وبدأت تصب الشاي ... كان برعما نهديها يبدوان كحبتي زبيب سوداوين من خلال غلالة ملابس النوم الرقيقة.. وضعت ساقاً على ساق، كان منظر فخذيها الممتلئين وصدرها البض كبياض الثلج من خلال حمرة الثوب الرقيق مثيراً للغاية، ولكي تزيد من استثارته فتحت باب الحديث وتشعب ليتناول كل شئ، وعندما تلفظ ئيسف بإسم خورشيد قالت بدون اكتراث:

- اذا جاء أو ذهب، الامر سيان . وجوده وعدمه متشابهان، لو كان في البيت كان شخيره قد علا الان!

- ينام! ...وأشار بكلتا يديه... هل هناك رجل يمكنه النوم وهو يرى أمامه كل هذا الجمال والقوام والجسد؟ لا أصدق!

- الرجولة ليست بالشوارب!

كان تعبيراً في غاية القساوة، حتى أن ئيسف إمتعض بعض الشئ.
- يبدو يا جميلة ان حظينا نحن الاثنين اسود، أووه قبل أن انسى ... ومد يده الى جيبه واخرج قنينة عطر وأردف ... المعذرة ولكني لم أجد أغلى منها وأزكى عطراً.
اشرق وجهها، نهضت ثم جلست جوار ئيسف، فتحت القنينة ورشت قليلاً من العطر على كفها وشمّت:
- يا الله، ليس هناك اطيب من رائحة النرجس، شكراً يبدو انك من اولئك الرجال الذين يعرفون ماذا تريد المرأة.
رشت العطر على يدها مرة اخرى وقربتها من انفه .. كانت المسافة بين رأ سيهما اقرب من شبر واعماق ئيسف كقدر فارغ يحترق على لهيب نار، يريد ان يبادر لكنه لا يجرؤ خوفا من ان تصده، صحيح انه مقامر متمرس لك ن ليس لديه تجربة مع النساء... وعندما فقدت جميلة الامل في ان يكون هو المبادر وان من المستحيل ان تترك هذه الليلة تفلت من يدها وتنام في فراش بارد، طوقت عنقه بذراعيها وتلاقت شفتاهما .. تشربان رضاب بعضها حتى الثمالة. وكما تُلفظ البذور بعد أكل الفاكهة كانت هي قد لفظت الرجال، لأنها مع كل الرجال الذين عرفتهم كانت تشعر أن لديهم سائلاً فائضاً ولابد من وجود إناء يريقونه فيه أو للتأكيد على أنهم ما زالوا فحولاً . نهضت واستدارت ودون ان تفترق شفاههما جلست في حضنه في حركة تشي بالخبرة كأنثى العنكبوت التي امسكت بفريستها، حتى تـأكدت ان ئيسف قد استسلم لها تماماً، عندها خفت من ضغط جسدها وارتخت بين يديه . ومن الشفاه والجيد الى الفخذين والركبتين والى ما بين النهدين تجولت

شفاه ئيسف وهو يبدو لاهثاً كالثعلب المطارد من كومة كلاب وقد تقطعت أنفاسه، مد يده اليمنى تحت ثوبها وأنزل حمالة الصدر عن كتفها.

- لا تستعجل، الليلة بكاملها، وانا كلي لك، لنذهب الى الغرفة لئلا يستيقظ الصبي.

مد ئيسف يده اليمنى تحت ركبتيها واليسرى تحت ظهرها وفمه يتنقل بين شفتيها ونهديها كفم ذئب جائع في لحم فريسته، وحملها الى غرفة النوم. وفي الفراش التف الثعبانان ببعضيهما وتقلبا فوق بعض، أنهكا بعضيهما بالقبل. تقلبا بكل ما لديهما من قوة في وحل الرغبة وهما يبدوان كقِربة حليب معلقة تُخضّ بعنف . وللمرة الاولى تجد جميلة نفسها تحت حرارة وهمة رجل جعل من فمها خلية عسل كلما لثم شفتيها ازداد حلاوة واشتد ضمأها، شعرت اكثر من اي وقت مضى بأ نوثتها، بركان يغلي منذ عهد الطفولة ويتجه نحو الانفجار، رغبات حُبست كعفريت سليمان في القمقم مذ كانت عروسة، لذلك بذلت كل جهدها . كانت أحيانا ترخي كل قطعة من جسدها كزورق استسلم لموجات النهر، واحيانا كالثعبان عندما يعتصر ضحيته .. مدت ذراعيها من تحت ابطيه ولفت سراقيها حول جسمه، شبكت أقدامها واعتصرته بجسمها .. البخل كانت كلمةً تسمع بها لكنها الان تدرك معناها وتشعر بها، تريد ان تحلبه حتى القطرة الاخيرة، وكما استحال أسفل سرتها الى كوة من بركان جحيم.. كانت عيناها تطفحان بنظرة غريبة كفقاعات تطفو على السطح تتشكل من أعماق أحزانها. وبلهفة ضامئ أخذت

ترش وجهه بقبل محمومة، وبحرقة معجونة بالأسف على ما فات همست:
- ئيسو... يا ابن الكلب.. اللعنة عليك وعلى الزمن وحظي الاسود، اين كنت عندما كنتُ ينبوعاً صافياً عذباً قبل أن يحولوني الى بركة ماء راكدة؟ وبألم وصوت حزين أكملت نداءها ... اين كنت، اين كنت؟
رحيق الشفاه والانفاس اللاهثة كانت تختلط ببعضها، في لحظات الصمت التي كانت تمر بسرعة البرق، وصوت تكتكات الساعة تخترق حرمة الليل وسكونه.
أحسّت قليلاً بخفة، خفة بالون ... رغبة مجهولة المصدر وفكرة خيالية من اللاوعي تولدت على شفتيها كلمات، وقالت دون تفكير:
- ليتنا تحولنا الى نِسرَيْن وطرنا عالياً صوب السماء الزرقاء والافاق البعيدة و.. و.. وأوروبا، في مدينة تضج بالبشر، لا يعرفنا فيها احد، لنطلق العنان لرغباتنا، لا خجل ولا ذنب ولا ممنوع، مدينة بلا ملائكة، كي لا تكون فيها أبالسة أيضاً.
تجسدت الكلمات فكرة وسرعان ما استحالت حقيقة لا شك فيها . كافة مراحل حياتها كانت سحباً صيفية، لكنها لن تدعها هذه المرة تعبر من دون ان تتشبع بالمطر. هذه الرغبة الفولاذية الجامحة في اختراق حدود حياتها الهامشية انتفضت في اعماقها فجأة وفي خلال لحظات تحولت من
خنزيرة او كلبة مطيعة الى لبؤة متمردة.. هكذا هي النفس البشرية لا يؤتمن منها.

كانا قد انقلبا على ظهريهما ويداهما متشابكتان ينظران الى اجنحة مروحة السقف التي لا تدور سبعة مرات في الاسبوع وينصتان الى تكتكات عقارب الساعة في نسق منتظم كفرقة جنود يمشون في استعراض عسكري .. يسار، يمين.. يسار، يمين.. كان نسيم الليل المنعش المنحدر من وادي دهوك يعبث بالستارة وأوراق نباتات الظل في الغرفة ويحركها. اجتاحت الجسدين، اللذين مازالا عاريين تحت الشرشف الاحمر، قشعريرة برودة . كانت جميلة تتكلم وئيسف يستمع اليها كالحمار الذي طرد لتوه من بستان ماش:

- كل ثانية تمر، ينقص من أعمارنا الذليلة المؤذية . دعنا نطير سوية، هيا قل نعم.. قل!

أسند ئيسف ظهره الى الوسادة وأشعل سيجارة ثم سحب نفساً عميقاً وكأنه يود أن يُشبع حتى أظافر قدميه بالنيكوتين.

- لم أفكر في ذلك ابداً، بعد الانتفاضة هاجر الكثير من الذين كانوا يملكون المال او الذين باعوا بيوتهم وسياراتهم او حلي زوجاتهم، او من إستدان او سرق .. تركوا عوائلهم في وطن ضحوا من اجل تحريره، وفي الوقت الذي تحرر فيه الوطن يهاجر منه الشعب ! لا اظن ان جميعهم قد هاجروا وواجهوا مخاطر عبور الحدود طمعاً في المال أو وراء الجنس، لا بد أن في أوروبا شيئاً ما والشرق منه محروم. التناقض يتجسد في كل شئ وحين، طبيعة في غاية الغنى وشعب فقير .. شعب كادح ووطن مدمر، أبطال ومضطهدون، هناك حلقة مفقودة.

- وماذا كنت تفعل انت؟

- لا ادري، ربما لم يكن لدي وقت للتفكير في التحليق والحب، كل فكري كان في أوراق البوكر.
- ما الذي أوصلك الى هذه الحال؟
- رسبت لسنتين متتالتين في المتوسطة، غضب والدي كثيراً وقالت له والدتي "ماذا اصبح الذين درسوا، غير العسكرية وأفواج المرتزقة؟" ثم جاءت الانتفاضة والهجرة المليونية، وبعد ان عدنا.. لا شهادة ولا مهنة، وانتشر الغلاء كالوب اء ليعصف بكل شئ . تضايق والدي كثيراً، واستطاعت والدتي اقناعه أنه اذا زوجوني فان أموري ستنصلح، المسكينة كانت تريد تزويجي هكذا فقط، رياءاً أو نكاية بزوجة حميها وجيرانها . ظلت لأكثر من شهر تنقر على رأسي كطائر نقار الخشب . عائلتي أنموذج بسيط ومصغر للشرق الذي تسود فيه سلطة الاب أو الام على العائلة، وفي عائلتنا كانت أمي كل شئ ولم يكن في مقدور أبي ان يعارضها او يتخذ موقفاً من اي شئ، شخصيتها المتسلطة محت شخصيتي، جعلتني دون شخصية (سلطة بلا حدود.. فساد بلا حدود) لذلك تمردت في اول فرصة.
- وزوجوك؟
- نعم، زواج مبادلة. ذات ليلة وجدت نفسي في غرفة، وحيداً مع فتاة بدت كوردة الصباح في زينتها، برعم بلون الملائكة في كفن الموتى، في تلك الليلة الكالحة المضببة والكهرباء مقطوعة عن آخرها وقبل ان ننتقل من مرحلة العذرية ونمزق ستار الحياء، أجفلها صوت انفجار عبوة (تي ان تي) خلف بيتنا، اندفعتْ نحوي وتشبثت بي ملتصقة بجسمي . جميلة وصغيرة ولكن ليس من

عالمي... وهكذا رُبطت بشئ أقوى من السلاسل وولدت لدي شعوراً بالغباء والضعف . المجتمع الذي حوّله الله الى ما يشبه الداية، يخلفون الاطفال ويطلقونهم في الزقاق وعلى الله الاتكال ! يحاولون التخلص سريعاً من ا لابن والبنت، بعد ان يمنحوهم لحافاً وزوج طناجر .. وركلة في مؤخراتهم . يحرِّمون المهر وزواج المبادلة وفي ذات الوقت يعملون بهما.

التفت الى جميلة واتكأ على مرفق ذراعه الايسر حتى غاص في الوسادة.. مرت لحظات وهما غارقان في اعماق عيون بعضهما:

- صدقيني جميلة، لو توفرت فرصة حقيقية فان نصف المتزوجين في هذه المدينة سينفصلون عن بعضهم، وقبلهم كلهم أنا وأنت ووالدينا.

انقلب على ظهره ونفث دخان السيجارة من فمه على شكل حلقات . فقط صوت تكتكات الساعة كان يخرق سكون الليل.

- لا ادري لماذا أتكلم هكذا؟ سنوات طويلة وانا صامت ! وانتِ كيف وقعت مع قطيع الضباع هذا؟

ابتسامة باردة ابرزت خطوط وآثار الاعوام الثلاثين على أديم وجهها. مدت أصابع يديها كالمشط وسرحت شعرها بعد أن دفعته للوراء:

- منذ الصغر كنت أسمعهم يقولون "الحلوة لها حظين، واحد من الله والاخر من البشر " وبسبب جمالي أصبحت موضع حسد الاصدقاء، وكان اكبر لعنة ايضاً ... وأراحت رأسها على صدره وأردفت.. الليلة أنا في غاية السعادة .. وكانت أناملها البيضاء الرقيقة تعبث بشعر صدره الكثيف.

كانت هادئة مطمئنة تشعر بالرضا، المرة الاولى التي تنام فيها مع رجل برغبتها، لذلك لم تشأ ان تخرب أيةُ ذكرى اخرى هن اءَ هذه الليلة. تنظر بطرف عينها الى عقرب الساعة الكبير، ومع كل حركة كانت ترى الحياة هاوية سحيقة وهي في سفح جبل تهتز معلقة بغصن شجيرة . كان صوت دقات الساعة يشير الى قرب انبلاج الفجر. افكارها ورغباتها كانت تتجه متوازية صوب اتجاه واحد، تلك الرغبات التي جاءت نتلئجها بما لا تشتهي نفسها. لذلك اصبحت جذوة ملتهبة تركد تحت رماد سنوات العمر العقيم الذي التمّت فيه الالام والاحزان كتلاً وارتفعت الكآبة طبقاتٍ حتى أصبحت هرماً، الى أن سحقته كله في ليلة واحدة في مطحنة ما تحت سرّتها.

قبلت شفتي ئيسف :

- زرع بذور المحبة ونشرها اسهل بكثير من زرع الحقد، لا ادري لماذا نحب الطرق الوعرة . الحياة البسيطة جعلناها في غاية التعقيد. النساء مشغولات بتغيير الموديلات غير آبهات مهما كان الوضع الاقتصادي صعباً، والرجال بتلميع الحذاء والبندقية، ناهيك عن اولئك الاساتذة ، الشيوخ المحترمين الذين اخذوا مكان شرطي المرور، يقفون عند مفرق الصراط المستقيم يؤشرون لمن يشاؤون فيوجهونه صوب قصور الحوريات وأنهار العسل والخمرة .. والذي يبغضونه يرسلونه الى المناجم الإلهية لانتاج النار والحديد وتحت ثقل سلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً . نحن مصابون بداء النسيان السريع!

- مئ ماذا؟

- الانفال التي هزت المشاعر والنفوس واشبعتنا قهراً ومذلة أصبحت مجرد شعار على رقعة قماش أسود (نحن ندين ونشجب....) وفي المجالس نردد (ان الله هو المنتقم الجبار...).
كان ئيسف ينصت مذهولاً كالذي لا يصدق ما تسمعه أذناه:
- وهل أصابتك الانفال انت ايضاً؟
بعد لحظات صمت، بدت خلالها وكأنها تستجمع ذكريات مقطعة ومبعثرة من ذاكرةٍ أكل الطيرُ منها وهي تلملم ما بقي منها، قالت بأسى وعيونها تشرق بالدموع، وحسرة من الاعماق:
- ابن عمي الذي كان يأتي الى بيتنا في المدينة بداية كل خريف للدراسة، كان شاباً محترماً وفي غاية الكىاسة، في بداية الصيف كان يعود الى القرية، ولكن في ذلك الخريف الاسود لم يعد الى المدينة ولم أره مرة ثانية، الذين نجوا من المذبحة قالوا "بعد عفو القيادة كوّمونا كقطعان غنم، وكان هو واحداً من اولئك الذين قضوا عليهم بالبلوكات في قلعة نزاركي " والان كلما تطلعت في وجهٍ مغبرٍ موشوم تذكرت طيف وجهه المشرق بعيونه الزرق وشواربه الشقر.
انحدرت الدموع على خديها، شعر ئيسف انها ترى فيه شيئاً من ابن عمها، حبيبها وحبها الاول، احتضنها بحب بين ذراعيه وصدره المشعر .. ورويداً رويداً كانت النافذة تزداد وضوحاً ويتراجع الفجر مفسحاً المجال لتدفق ضياء نهار جديد.

١٢

- صدقني انها منتهى السعادة واللذة، ولكن ماذا أفعل فحب الوطن وخدمة الشعب في مقدمة كل شئ كما تعلم . أعزك الله، لا أدري الى اين وصل الموضوع الذي حدثتكم به قبل سفري الى الخارج؟
كان الآغا يتكلم وسماعة الهاتف في يده.
- أين وصل!؟
- .....
- نعم، ولكنكم تعلمون ان حل مثل هذه المسائل داخلياً أفضل بكثير، وإلا فان أية امرأة تزعل اذا ذهبت تطرق باب المحاكم....
- .....
- أرجو ان تهتموا بالامر، المسائل الاجتماعية من اختصاصكم.
- ....
- شكرا، سيدي أتمنى لكم نهاراً طيباً.
وضع سماعة ا لهاتف وقال بارتياح "حسناً، فلتخرج القضية من المحكمة والباقي أمره يسير، آزاد بثقافته وأستاذيته تحت قدمي " وسحق بقدمه على الارض وكأنه يطفئ عقب سيجارة.
- سيدي، بكر المحامي في الصالة... قال أحد الخدم.
- أدخله.
دخل المحامي بقامته المديدة وسلم على الآغا:

- حمداً لله على عودتكم بالسلامة.
جلس قبالته وأسرع بفتح حقيبته الدبلوماسية أخرج ملفاً ووضعه أمام الآغا، وكأنه يعرف ان الآغا لا يريد ان يتأخر.
- إيجارات الدور والمحلات ارتفعت بنسبة خمسين بالمائة، أما....
- قل لي بكر، ماذا حدث خلال العشرين يوماً أثناء غيابي؟
قال الآغا بطرف شفتيه وهو يحاول تغيير الحديث بينما وضع الخادم أقداح الشاي أمامهم.
- لم يحدث شئ مهم.
- تناول أنت شايك وسأغير ملابسي.
تابعه بكر بنظراته وهو يرتقي درجات السلم حتى الطابق الثاني، عندها اخرج دفتر مذكراته من الحقيبة، قلب صفحاته وكتب (آخ سيدي، لو كان بكدح يديك ومهارتك وذكائك لسخرت منك الكلاب الضالة الان، نركض نحن مثل الذئاب وراء لقمة العيش وانت ايها المستشار المدلل الذي تسافر وتسيح بعددِ فصولِ السنة نحو حدود اوروبا وتقضي الليالي الحمراء في اسطنبول، وبعرق جبين الناس ودماء الشهداء تعتكف بين الكأس والشفاه . كان قد بدأ بعزقكم مثل الملك شهريار ولكن القادسية الثانية أحيتكم من جديد، أدرسُ عشرين عاماً وفي النهاية أقول لوجهك الفاشل : سيدي!. ماذا عساي أفعل فحالنا كحال الذي يده تحت الصخرة. مثل اليهود الذين كانوا يتاجرون في القطن في امريكا، أصبحتَ اخطبوطاً اقتصاديا في هونك كونك الجديدة، لو كان الامر بيدك لأرجعتَ هذا الشعب عقوداً الى الوراء لكي يظلوا كفراخ القبج تحت سلتك التي إنفلتوا من تحتها يوماً كالسهم المندفع من قوسه، اللعنة عليكم حرمتمونا

من شرف الدولة وسعادة الحرية قبل ان نأخذ شكلاً ادمياً في رحم الوجود. بفضلكم ما زال المسيح يمشي على بحيرة الجليل وبدرخان لا يزال منفياً، لذلك فانه في اليوم الذي ينفخ فيه اسرافيل في الصور ويقول رب العالمين "بعزتي وجلالي إنهضوا جميعاً " فان الكورد وحدهم سينهض نصفهم من القبور، اما النصف الباقي فسيخرجون دون أكفان وهم ينفضون ملابسهم من رمال الصحراء.. نساء، رجال وأطفال يقفون امامه يصرخون "يا صاحب البترول والكيمياوي، نعرف ان الذي في صدرك أكثر سواداً وأقسى وأصلد من الحجر الاسود، ولكن ارحمنا، ارحمنا..." وهم يعتقدونه الكيمياوي علي.

صوت أقدام الآغا أسكن حركة قلمه، طوى بكر دفتره وأودعه الحقيبة.

- بكر، اين وصلت مسألة تلك البناية؟

- المستأجرون أخلوها، وقد سويت بالارض ولكن...

- ولكن ماذا؟

- كانت هناك أكثر من عشرين عائلة تعيش من وراء تلك الدكاكين، وأصغرها الواقع عند الركن كان صاحبها لا يتنازل عنها مقابل مائة الف دينار لكنه ُطرد الان منها مقابل عشرين الف، والقانون...

- لا تفكر في أمرهم وأمر القانون، ماذا بامكانهم ان يفعلوا؟ اي واحد يلجأون اليه هو في... وأنزل يده في جيبه.

كان يجرجر قدميه على رصيف شارع نوهدرا الذي توزعت على جانبيه محلات بيع الخمور وامتلأت المقاهي بلاعبي البوكر والدومينة، وعلى الرصيف المشرف على ساحة إعدادية كاوة كان الشباب يتمشون في مجاميع، فيما البعض منهم يستندون الى السياج الواطئ المطل على الساحة وهم يتابعون لعبة كرة السلة . وضع مرفقه على السياج وراح ينظر الى اللعبة . كان الظل قد انسحب على المدينة، عدا غابة اشجار الصنوبر في سفح الجبل المطل عليها بدت كمسرح أُضيئ نصفه بضياء احمر، وعلى طول مجرى النهر كانت طبقات من ادخنة الشواء المنبعثة من الكازينوهات المنتشرة في البساتين على حافة النهر، تغطي المنطقة. كانت افكاره مبعثرة، رفع مرفقه من على الحقيبة، اخرج الدفتر وكتب (سباق من اجل إرضاء الآغا، كل من اعتل ى اكتاف السلطة أجزل لهم العطايا والمنح اكثر من سابقه) على مقربة منه كانت هناك مجموعة شباب يخططون لكيفية الهجرة، أحدهم، وكان حليق الشارب واللحية يرتدي بنطال جينز وتيشرتاً اسود اللون يبدو كهيئة قس، قال:

- حدودنا أمرُها علي لقد اصبحتُ خبيراً في كيفية عبورها، اما حدود اليونان فان المهربين في اسطنبول يتعثرون بأقدام بعض، وما بعد ذلك جنة الاحلام.

- واذا أطلق الجندرمة اولاد الكلب النار علينا او مسكونا؟

- لا تكن جباناً، نحن معك ايضاً، والجندرمة يبيع أمه مقابل عشرة دولارات.

(في مجالسنا نمطر الغرب باللعنات وعند أبواب سفاراتهم نقف في طوابير ونقدم لهم طلبات اللجوء) كتب بكر المحامي ذلك في دفتره، طواه ووضعه في حقيبته وانحدر نازلاً للسوق. وصل قرب مرآب باصات الريم ... وفي ذات الوقت عبر آزاد الشارع الى الجهة الاخرى بسرعة، استدار بعدها يساراً.

كانت الغرفة ملآى بالكتّاب والصحفيين وعدد من اساتذة الجامعة، ونقاش كل يوم وكل مكان حول الحصار والدولار والهجرة، ناهيك عن الاقتتال الداخلي ومشاكل ونواقص الادارة . وقف كوهدار في الباب يحمل ورقة في يده وهو يقول:

- استاذ، ماذا سنفعل بهذه العبارة الخاطئة؟

- يا اخي أبدلها، انها ليست آية من القرآن.

انبرى احدهم وكان يوشوش في أذن صاحبه وقال بصوت مرتفع وغاضب:

- لا تكفُر! انا لا أقبل.

التفت اليه كل من كان في المجلس ثم تطلعوا في وجوه بعضهم باندهاش دون ان يعرف احد منهم ما الذي جرى.

- خيراً ما بك؟ قال الاستاذ بهدوء.

- قلت لك لا تكفر.

- القَسَمُ باسم الله وتكفير الناس كم هو سهل لديكم!

- كثير عليك ان تتكلم عن القرآن هكذا.

- انا قلت، انها ليست آية من القرآن، اي انها مجرد مقالة وليست شيئاً مقدساً حتى لا يمكن تغييرها.

- يا حراس الله، اين كنتم يومها؟ تناولوا مفاخركم مع حليب النوق ولكن دعونا وشأننا.
رد عليه البروفيسور عبدالوهاب.
- لا يليق بالانسان المسلم ان يجلس في هذا المكان... وخرج.
- انا لا افهم أيّ ربٍّ ذلك الذي يدافع عنه هذا المهرج؟ استاذ آزاد هل فهمت، ماذا يمكن ان نسمي هذا الامر؟
- إرهاب فكري، عندما يكفّرك على اي شئ لم تقله، فكيف اذا قلت! ستصبح اذن أية كلمة لا تعجبهم موضوع خطبة الجمعة. بدلا من ان يُكمل الملاّ والمثقف، المتدين والوطني احدهما الآخر، للاسف باتوا خصوماً والمتضرر الوحيد هو الشعب.
امسك آشتي بيد آزاد وسحبه الى غرفة مجاورة:
- اخ آزاد، هناك مهرجان شعري سيقام في اربيل.
- متى؟
- السبت.. كن متهيأ الساعة التاسعة صباحاً.
- غريب، لم تُوجَّه لي الدعوة أبداً !! وفتح يده.. منذ خمس سنوات وانا معكم ولم أخرج.. وأشار بسبابته.. مرة واحدة من دهوك بأسم الكتّاب!
- أخ آزاد، لدينا أكثر من مائة عضو.
- لا، اكثر من مائة صوت وليس كاتب، ومن اولئك المائة فقط عشرة، ولو كان هناك عشرة نشاطات ايضاً فان نفس الاسماء العشرة تتكرر دعوتها.
- في الصباح سننتظرك.
- حسناً.

١٣

الشوارع التي تبدوعادة كخلية نحل وهي تعج بالبشر بدت اليوم مقفرة كظهيرة احد ايام نوروز . بداية تقلص النهارات، لكن انعكاس حرارة قرص الشمس ما زال واضحاً، فالحرارة تنبع ث من الشوارع والابنية .. كان يُسمع فقط أصوات خطب الجمعة المنبعثة من الميكرفونات من كل حدب وصوت وهي تختلط ببعضها، أما الاخرون الذين تمكنوا من تدبير حتى أربعة اطارات فقد خرجوا من المدينة هرباً من الحرّ وأنتشروا من الواديين وحتى نهري (زي) و(الخابور).

في الطريق الترابي نحو جبل (كارة) وقفت سيارة الكرولا الحمراء مقابل مدخل الوادي وترجلوا منها، حمل ئيسف بعض الاغراض وقال:

- خورشيد، الباقي مهمتك.

كانوا يمشون في الطريق الميسمي جوار الساقية وينظرون باندهاش الى مناظر الجبل الساحرة، وصلوا الى مكان شبه مستو، بركة صغيرة وظل شجرة. قال خورشيد الغارق في عرقه والنسيم العليل يضربه:

- يآآآه، كم هو عذب!

نزع حذاءه، رفع طرفي سرواله، وفي البركة الباردة الرائقة غسل يديه ووجهه ونهل بكفيه الماء، ثم خرج وهو يركض . كانت قدماه البيضاوين الناعمتين كقطن منطقة (سلوبي) قد إحمرّتا، قال:

- هذا ليس ماء، انه ثلج!

- أية طبيعة رائعة خلابة!

كانت جميلة تقف على مقربة وهي تقول لئيسف:

- تعال لأريك مكاناً ما... ومشت أمامه.

كان خورشيد المتعطلة عنده كل الغرائز، سوى الاكل، مشغولاً باعداد منقلة الشواء. بين الصخور والاحراش كانت جميلة تخطو بحذر شديدٍ وتقول لئيسف:

- مكان خطر!

- كوني متأكدة، ليست الوحوش البرية الخطرة غير موجودة في هذا الجبل فحسب بل حتى السناجب وطيور القبج اذا تحرك واحد منها في سفوح الجبل إنطلق زوجُ رصاصاتٍ تجاهه.

في سفح الجبل وبارتفاع مترين تقريباً كانت هناك عدة حفر نقرت في الصخر تكفي لشخص واحد.

- ماهذه؟ ... وجلست على الصخرة.

- يقال انها مغارات المتعبدين الزرادشتيين .. وجلس جوارها ثم قال.. تعبتِ؟ كعب عال وفي الجبل!

مد يده ووضعه تحت ذقنها، أدار وجهها، قرب شفتيه من شفتيها ووضع يده اليمنى على نهدها الايسر، امسكت جميلة بيده كما يُقبض على رقبة سارق قن الدجاج.

- أيها المراهق الفاسق، هل هذا وقته ومكانه؟ .. أزاحته عنها وقالت... ماذا فعلت؟
- في أي شئ!؟
- حديث تلك الليلة.
- أية ليلة؟
غضبت وصرت على اسنانها البيضاء بلون اللؤلؤ وقالت:
- كلكم من صنف واحد .. كلاب.. تصلحون للجماع فقط، حتى عبادتكم هي طمع في الحوريات ولـيست خالصة لله.
- ولكن حباً لله... أفهمِيني!
- الى متى سأستطيع المقاومة؟ هذه الحياة القذرة الفاشلة، انها لا تستحق ان يحياها المرء.. سأُجن يوماً ماً.
دفنت وجهها بين يديها وأجهشت بالبكاء، وبعاطفة جياشة لم يشعر بمثلها أبداً تجاه زوجته نسرين، قال لها:
- جميلتي، عبور النهر ليس أمراً هيناً، وتحتاج الى مبلغ كبير من المال، ثم ان الوقوع بين ايدي الجندرمة الاكثر وحشية من الذئاب عار وفضيحة.
رفعت جميلة رأسها وفي عينيها شئ من الاستجداء:
- ولكن هناك بصيص من أمل.. ارجوك ئيسف، هل تخاف؟
- هنالك طريقة، لكني متردد.
- لماذا؟
- صديق الطفولة والدراسة، كامل، جدته يهودية وهو الان في اسرائيل، في تل ابيب....
قطعت جميلة كلامه:

- اليهود! وأوروبا الواسعة هذه!؟
- الطريق أسهل وأقرب وأكثر أماناً . من (سلوبي) الى (ميرسين) وبمكالمة واحدة، والباقي يتولاه هو . جاء الى هنا العام الماضي، كان يرغب كثيراً ان أسافر معه لكني رفضت.
- انا لن أذهب بين اليهود.. قالت جميلة بشكل قاطع.
- بقدر ما هي بغيضة كلمة اسرائيلي لدينا، فان كلمة كردي أبغض كثيراً لدى بعض الناس . الاعلام القذر.. ما نشره العرب والاتراك ضدنا لم تشأ اسرائيل ان تنحدر الى ذلك الحضيض.
ثم أشار باصبعه الى كهف قريب وقد كُومت الحجارة عند بابه وأردف:
- والانفال خير شاهد على ذلك.
نهض، مشى بضع خطوات ثم التفت الى جميلة:
- اسرائيل ستكون محطة عبور فقط، سنة واحدة .. ولوح باصبع السبابة.
فكرت جميلة للحظة، وقالت
- حسنا، فقط سنة واحدة، أنا وأنت وإبني أحمد.
- لا.. احمد ابن خورشيد.. أجاب بعنف.
وكالقطة التي تعرضَ صغارها للخطر ردت عليه:
- لا.. احمد والمال ليسا له، لم يكن أكثر من ستارة.. ونهضت.
- فلنرجع قبل ان يشعر بتأخرنا.
عندما وصلا، كان خورشيد امام منقلة الشواء وعليها إصطفت أسياخ اللحم المشوي . نادى احمد وهو في بركة ا لماء على امه .. التفت خورشيد اليهما:

- تعالوا الى اللحم... وقلّب اسياخ اللحم على الجمر ثم اتجه صوب البركة، اخرج قنينة بيبسي كولا، واخذ يكرع منها:
- يآآآه، انها ثلاجة طبيعية، ولكن لماذا المكان مقفر من البشر؟
اقترب ئيسف وجميلة، كانت رائحة الشواء تملأ الاجواء.
- كيف سيبقى بشر هنا وهذه الانحاء تحولت الى محطة للمراهقين. قبل ان يرحل فوج منهم يدق آخرون أوتاد خيامهم .. تلك هي أطلال قرية (كَـلَـكـا).. رد ئيسف وهو يشير بيده.
- هل تعتقدين ان الجنة اكثر جمالاً من هنا؟ قال خورشيد لجميلة التي كانت تحمل سيخاً من الشواء في ى دها. سحبت قطعة لحم وقالت وهي تبتسم:
- لا أدري، لم ألتق أحداً عائداً من هناك، لكن الذي أعرفه ان ملالينا ومتصوفتنا يحبونها كثيراً .. ثم التفتت الى ئيسف، تطلعت فيه واستدركت كلامها ... لانه يقال بأن الحوريات التي لا تشيخ ولا تشبع من الجنس متوفرات هناك بكثرة!
بلع ئيسف قطعة اللحم التي كان يلوكها وهو يصغي الى كلام جميلة وقال:
- يقال بان أحد مُـلاّك الاراضي كان يسكن هذه القرية ويدعى خَـموي سوهي وكان يمتلك قطيعاً كبيراً من الغنم، وخلف الجبل كان يسكن آغا، يوماً ما قال له كبير أزلامه:
- آغا.. سنهجم هذه الليلة ونسلب خَـمـو قطيع غنمه بعد أن نقتله.
فرد عليه الآغا:
- يا لكم من حميرٍ عديمي الادمغة، لوقتلتموه من ذا الذي سيرعى الغنم لي؟

١٤

كرسي الآغواتية بوجود أمثال آزاد، وإشباع رغبات جميلة وتحقيقُ أحلامها مع وجود زواج المبادلة أمران يتهددهما الخطر . لذلك وبدون ان تلتقي الاطرا ف المعنية بالامر فقد تقاطعت مصالحهم.. وهكذا طارت إضبارة الدعوى من المحكمة!

في ذلك الصباح كان شاهين يقف أمام الطاولة، وكان سيدٌ عصري، بدون دراسة القانون أو الشريعة، يجلس وراء الطاولة وقد أخذ دور القاضي ! شهادته أكبر من ذلك كله، مَسنودة . ليس مهماً أن يعرف هل يوقع فوق أو أسفل إسمه . من غرائب السلطة وعجائبها في الشرق انها تشبه زخة مطر ربيعية حين تأتي وحين تعطي، المكان الذي تمطر عليه تشبعه وتتخمه، وتترك الباقي يباباً من شدة الضمأ!

بعد عدة اسئلة لا محتوى لها مثله، قال:

- أمام ابنتك مهلة ثلاثة ايام لكي تعود الى بيت زوجها...

وتناول سماعة الهاتف وأدار رقماً.....

* * *

- آلو شيرين.. وددت ان أُسلم عليك قبل ان اسافر.
- سفر! اين ستذهب؟
- أربيل، هل تريدين شيئاً من هناك؟
- نعم.
- ماذا؟
- عد بسرعة...
ودخل احد اصدقاء آزاد وقال "اسرع، آزاد هيا!" اشار اليه آزاد بالايجاب وقال لشيرين:
- لا أريد أن أضع سماعة الهاتف، لكن الاصدقاء في انتظاري.
- وانا ايضاً سأكون في انتظارك.
تحرك الباص من مرآب فندق لومانا، وعند اشارة المرور في تقاطع سوق الصاغة والبورصة توقفت السيارة . كان الظاهر للعيان هو تبادل العملات النقدية، أمّا ما يجري خلف الستارة ... لو فتحت أدراج أيّ مكتب في تلك المحال لظننته مكتباً من مكاتب وزارة الخارجية او الداخلية.. جوازات سفر، هويات أحوال مدنية، شهادات جنسية، وثائق متنوعة، اختام من مختلف الانواع، ناهيك عن تأشيرات جاهزة لعبور الحدود . إدفع المعلوم في المساء، تجد نفسك مع نجمة الصباح مغترباً في الخارج.
في احدى تلك المكاتب... تصفح أوراق الجواز، وقال له:
- زوجتك!
- نعم.

ناوله الجواز وهو يهز رأسه كمن لا يصدق وقال لزميله بعد أن غادر صاحب الجواز واشتعلت اللمبة الخضراء:
- تبدو زوجته في الصورة أكبر سناً منه!
- ربما كان قد تزوج أرملة أخيه أو عمه؟
- ربما، فعندنا كل الطرق تؤدي الى روما.
كانت جميلة منهمكة في إعداد كبة الرز عندما توالى الطرق على الباب وبشكل متسارع.
- تراه من يكون مستعجلاً هكذا؟
فتحت الباب واذا بئيسف يتكأ بكتفه الى ركن الباب، إستدارت وعادت على اعقابها وهي لا تزال تحمل حبة كبة بين يديها وتفكر "قطة وجاءت وراء رائحة اللحم!"
- من في البيت؟
- انا لوحدي.
أخرجَ من جيب بنطاله الخلفي جواز السفر وحمله بالقرب من وجهه وقال:
- وأخيراً اتفقت مع المهرب.
وكالجندي الذي يدور على عقبيه، دارت جميلة حول نفسها بخفة، رأت الجواز في يده، طوقت عنقه لفرط سعادتها وراحا يتبادلان القبل.
- غداً مساءاً موعدنا.
أغمضت جميلة عينيها وراحت تمرر أنفها على أديم وجهه وكأنها تشمشمه، وبلهفة سجين في معتقل (أبوغريب) جاءته للتو بشارة إطلاق سراحه، قالت:

- وأخيراً سأتنفس هواءاً نقياً.
لحظات الصمت .. اللحظات التي تسمو فيها الروح نحو الاعالي تغدو الامكنة والازمنة والتقاليد أشياءاً هامشية.
- كل نقودنا بلغت خمسة الاف دولار.
- ليس مهماً، لدي ذهب أيضاً يساوي ذلك المبلغ.
وعادت الى المطبخ بعد ان شمت رائحة إحتراق الزيت.
- لن تكون أمامنا ثمة فرصة للتراجع.
- أخرجْ تلك الفكرة من رأسك، أُدعو فقط ان لا نقع في أيدي النصابين... ووضعت الكبة في الزيت الحامي.
- شينو من أفضل المهربين، صحيح انه يأخذ مبلغاً كبيراً مقابل التهريب ولكن لم يُعتقل أحدٌ ذهب معه . حسناً ولكن ماذا عن خورشيد؟
- إطمأنْ سيسافر صباحاً الى بغداد لجلب بعض المست لزمات العسكرية.
- مستلزمات عسكرية!
- دشتي داهية ابن حرام، يتمتع بعلاقات على كل المستويات، يتاجر في كل شئ .. حتى أُمه، فقط اذا حصل على نقود . جوعه للمال ليس له حدود.
- لا تلوميه، لقد قضى حياته في الحرمان.
- مثل عمنا المختار!
قالت جميلة ضاحكة وهي تخرج الوجبة ا لاخيرة من الكبة المقلية من الزيت بعد ان اطفأت شعلة النار تحته.
- من؟

- شرطي الرب.. المختار، الرجل الذي جاء تلك الليلة، كان يبيع الاخلاق والدين والكورداِيَتي برؤوسنا، صحيحٌ ما كان يقوله ولكن كلامه لم يكن لله والوطن، إنما من أجل جيبه.
- ذلك المهترئ الذي يضع قدما في قبره والاخرى ما تزال في الدنيا، له جيب أيضاً؟
- جيوب الناس جيوب عادية، وجيوبه شوّالات ! الفقراء يبوسون الايادي اضطراراً وهو يلحس القنادر.
- في الايام الاخيرة لاحظت انك لا تضعين الماكياج؟
- الماكياج كان قناعاً ليس إلا، كنت أخفي شخصيتي المتهاوية خلفه، وبعد ان ظهرت انت لم أعد اشعر أنني في حاجة اليه . لقد ابدلت تلك الاصباغ بصدرك وحضنك الدافئ، انت درعي .... وأحشت حبة كبة في فمه.
للمرة الاولى في حياته يشعر ئيسف بالرجولة والمسؤولية . ذلك الشعور الذي لم تمنحه إياه قط، لا نسرين ولا والدته، واليوم تمنحه جميلة ذلك كله. انه منتش من فرط سعادته.

* * *

كان الباص يسير في منعطفات منطقة (أتروش) وكان الدكتور الجالس في الامام يكز بأسنانه على أطراف شاربيه باستمرار وبمنديله المبلل يبرد بين الفينة والاخرى جبهته نصف الصلعاء، فيما كانت المقاعد الخلفية للباص تضج بأصوات الغناء والتصفيق والنكات.

هز آزاد رأسه وقال:

- بربي ليس لهذا مثيل، لا يتعب ولا يمل ولا بطاريته تهبط!

- هو ليس عضواً، ولكن من باب الصداقة ولمرحه وخفة دمه فقد جعلناه عضواً...

قال الدكتور بفخر كمن أدى عملاً جيداً!

- لمرحه وخفة دمه! وفي الانتخابات يتساوى صوته وصوت احد المؤسسين للاتحاد. اذا جاء يوم وكُتب فيه تاريخ اتحاد الادباء فان أمطاراً من اللعنات ستكون من نصيبكم يا من حوّلتم مركزاً ثقافياً الى.... وأشاح بوجهه ولم يكمل كلامه.

- هيه، حَمو أيها الحمار...وجحظت عيناه غضباً.

عند العصر كان الباص يسى ر في الشارع الستيني بأربيل . لمح العلم الذي كان يتراقص مع الهواء في أعلى مبنى البرلمان . أشرقت عيناه وارتسمت على شفتيه ابتسامة، وتذكر لحظتها ايام مخيم (بَحركي) عندما كان ينزلُ الى المدينة التي كانت أعداد الشرطة والجنود والرفاق فيها أكثر من أعداد الذباب . قال يناجي نفسه "أنتَ أكثر من مجرد قطعة قماش أخضر وأحمر وأبيض تتوسطك شمس صفراء، أنت رمز شعب في مثلث الاضطهاد الذي يتلقى الغذاء من مشيمة الشرق والغرب وفي إعلامه يشتمهم

ليل نهار! من قمة (آغري) الى (مهاباد) التي جاءت بعد مخاض عسير وعروس لم تُكمل سنتها الاولى، ک انت الامال تهتز معلقة مع القاضي في حبل المشنقة وفي ذات الوقت كنت أنتَ ترقد في جيب صديرة بيشمركة في أقرب نقطة الى قلبه خلال مسيرةِ قطعِ قممِ ومرتفعاتِ جبال (آرارات) ونهر (آراس) مطوياً بآمال وتطلعات الشعب. لو تكومت كل التضحيات التي قُدمت في سبيلك أيها العلم لشكّلت هرماً ضخماً تنافس قمتُه في إرتفاعها عرشَ الله..."

عند الغروب، وبعد ان أخذ حماماً وقسطاً من الراحة، جلس في بالكونة غرفته بالطابق السادس في فندق (اربيل تاور) وهو يتطلع الى مناظر المدينة، التفت الى صديقه:

- غانم، سأذهب الليلة للسلام على عمتي، فلربما لن تتاح لي الفرصة لذلك يوم غد.

أخرج غانم رأسه المغطى برغوة الصابون من باب الحمام وقال:

- اذا تأخرت أبلغني عن طريق الهاتف.

كان يمضي سهرته في تلك الليلة في بيت عمته التي لم تظهر بعد على أديم وجهها الصافي أية علامة من علامات الشيخوخة، كانت بفستانها الكوردي الاز رق الضارب للسواد وبملامحها وقامتها تبدو أقرب شبهاً للفنانة عايشاشان . كانت عمته تعيش مع إبنها الكبير فرحان القريب الى عمر آزاد، وكاميران ذو الاربعة عشر عاماً، والبنتان الصغيرتان كوردستان وكولستان.

- بني، اذا أردتما أن تناما، فان فراشيكما جاهزان.

- حسناً أمي.

صعد آزاد وفرحان الى السطح متأخرين، كان كاميران نائماً .
جلس آزاد على حافة السرير وراح ينظر الى المدينة . لمح القلعة العتيقة التي دحر الاسكندر تحت ظلال أسوارها جيوش القائد دارا ولعق عندها العرب والمغول جراحهم . كان القمر الذي يسكب نوره على المدينة يبدو كبلاج كتور ربّاني معلق في سماء المدينة، كان آزاد يرى في صفحة القمر وجه دلبَر والندم في عينيها الخضراوين، ووجه شيرين والاشراقة في عينيها النرجسيتين .
بدت المدينة بأضويتها التي كانت تنطفئ وتشتعل تارة أخرى كأنوار بيت يعبث طفل مشاكس بأزرار الكهرباء فيه لكثرة إنقطاعات التيار الكهربائي.
- فرحان، مكثتم في إربيل إذن!
مرت لحظات صمت كان فرحان خلالها يدير بصره في المدينة حتى وصل جهة مخيم (بحركي) وتوقف:
- في عصرية يوم شديد القيظ جلبونا نحن عوائل منطقة بهدينان المؤنفَلين. نساء وأطفال بلا رجال، بشاحنات الايفا العسكرية وأفرغونا كما تفرغ القمامة في أرض منطقة بحركي، في سهل اربيل الذي غدا في ذلك الخريف كدرعِ قنفذٍ عجوز لكثرة ما انتشرت فيه الاشواك ونباتات العاقول .. لا خبز.. لا ماء.. لا سقف يحمينا من حرارة النهار وبرودة الليل التي تتغلغل كالابر في الجسم حتى نخاع العظم . الامهات المهيضات الاجنحة تحاول كالدجاجات لملمة افراخها تحت اجنحتها لتحميها من عيون وأنياب وحوش الليل والذئاب المسعورة، وعيون الجميع تتطلع نحو سمت السماء وقلبِ الحجر في صدر الفاتح الصحراوي طمعاً في قطرة

رحمة منه، ولكن هيهات . كانت أوقاتاً عصيبة يحسد الانسان فيها الاموات في قبورهم ويقول "ليتني كنت مكان واحدٍ منكم!..." كان آزاد يصغي بصمت، وكل صور الالام والاحزان، من الانفال حتى الانتفاضة تتكرر أمام عينيه.

- مثل أودوسيوس، داروا بنا على كل دهاليز وسراديب الجحيم، في البداية جمعونا كلنا، الاب والعم والخال وكل القرويين، حتى الصبي الذي ظهرت آثارُ زغبٍ تحت إبطيه، مثل يهود يثرب، حتى بْرُو المجنون لم نره منذ ذلك اليوم . طبعاً لم يوصلوا الجميع الى محارق (عَرعَر)...

وذَكَرَ هنا كتاب (تاريخ التعذيب في الاسلام)... وأردف قائلاً:

- اذا كان ذلك ما فعلوه ببعضهم فما بالك بما ارتكبوه بحقنا نح ن الكورد؟ هكذا كان حال أشباه البشر اولئك، النفوس المنكسرة المحطمة في طوق حصار البعثيين، وفي وقت كان الجميع يتحاشى شرهم والعالم الاسلامي ينادي " هذا ظلم وبهتان يختلقه الكورد سليلي الشياطين وجواري سليمان ..." في ذلك الوقت العصيب مدّ أهل هذه المدينة، وكل كردي يد العون لنا وكسروا حاجز الخوف، ما قدموه لنا لا أعتقد أن حواريي المسيح وصحابة محمّد قد فعلوا مثله ! صحيح انهم لم يستطيعوا أن يملأوا مكان الاب والشقيق، لكنهم لم يدعوا لنا فرصة للشعور بالغربة والوحدة والبعد عن الاقارب والاصحاب . ربما كان تكاتف الكورد وتعاضدهم أوقات المحن هو سر بقائهم وديمومتهم، لذلك فاني كأي كردي أربيلي أفتخر بانتسابي لهذه المدينة.

- حقاً يا فرحان، ان موقفهم ليفوق كل وصف ممكن.

- ماذا يفعل صديقك كوفان؟
- كما هو، ويبدو انه سيبقى كذلك لفترة طويلة، من المؤسف حقاً انه إذا كان للمرء ان يكون محبوباً فـي بلده فعليه ان يكون صاحب مال أو عشيرة، أو منافقاً.
صعدت أُمّ فرحان الى السطح، قالت:
- ألم تناما بعد؟
- حسناً اماه.
كان القمر بأشعته الفضية ينير المدينة كخشبة المسرح، والافق يبدو كقوسٍ في السهل المنبسط المترامي الاطراف . كان الوقت قد عبر منتصف الليل وما زال ت أصوات المارة والسيارات في الشارع تُسمع بوضوح، لم يكن بالامكان رؤية وسط السوق، ولكنه كان ممكناً سماع جلبته ونشاطه ... شربَ الماء من الترمز وتمدد على فراشه وبصره معلق بالقمر . جاء صوت سيارة توقفت على مقربة، ومع موجة الكرى التي كانت تداعب جفنيه كان يقول مع نفسه "هذه أربيل التي كانت توصِد على نفسها الابواب من الداخل بعد الغروب لتحمي نفسها من كلاب الصيد التي كانت تجوب الشوارع حتى الصباح كالقطط والكلاب السائبة تنبش في حاويات القمامة بحثاً عن عظمة!؟..."

١٥

عاد خورشيد من بغداد .. فتح الباب .. المنزل متروك ! نادى "جميلة، أحمد" لكن أحداً لم يرد، وضع الحاجيات التي كان يحملها بين يديه على المنضدة في الصالة وقال "أين ذهبت مرة اخرى؟" سمع طرقاً على الباب وعندما فتحه شاهد رجلاً يقف بالباب وسيارة واقفة وبداخلها رجلان آخران.

- طاب يومك، هل هذا بيت خورشيد؟
- نعم انا خورشيد، تفضل.
- لا، تفضل أنت معنا.
- اين؟
- هناك ستعرف.

استقل معهم السيارة التي انطلقت باتجه سهل (دوباني). وعند منطقة (زرافكا خاني) أخذ قلبه يحدثه ألف حديث، التفت اليهم وقال:

- اين ستمضون بي؟
- سنذهب الى (زاخو).

اجتازوا (سيميل)، كان خورشيد مضطرباً، التفت مرة اخرى وقال:

- أريد ان أفهم فقط، ما القصة؟
- كن مطمئناً استاذ.

- كيف تريدني ان أطمئن، كيف؟
في أحد أحياء المدينة وقفت السيارة امام باب احدى الدور، أخذوه للداخل، نظر حواليه، لا يشبه بيتاً أو دائرة ! داهمه الخوف خاصة بعد ان رأى بعض المسلحين في صالة الدار، راح يحدث نفسه "من هؤلاء؟ وماذا يريدون مني؟ هل تراهم علموا بالذي بيني وبين دشتي؟ اذا كان ذلك صحيحاً فقد انتهى أمري اذن، لن يحصل شئ لدشتي إنه كالقملة في كومة حنطة . وهو ليس بمفرده . كلما كانت الجريمة أكبر ارتفعت درجته اكثر..."
وفي الغرفة الخلفية:
- لقد جلبناه سيدي.
كلفت غرفة مؤثثة بشكل جيد وأنيق، يجلس رجل أبيض الشعر بملابس كردية وراء الطاولة، عظيم الجثة يبدو كأحد أحفاد رستم[١٧]. عندما تحدث كان واضحاً ان أسنانه الامامية اصطناعية.
- تفضل بالجلوس... وجلس خورشيد.
- ما اسمك؟
- اسمي خورشيد.
- نعم أخ خورشيد... وجميلة؟
- انها زوجتي
- واحمد؟
- انه ابني.
طُرق الباب ... أستاذ لقد جاء الضيوف . قطع الصوت سلسلة الاسئلة لبرهة، لكن الجالس وراء الطاولة داوم على اسئلته:

- واين عائلتك الان؟
- عدت الى البيت ولم أجد أحداً، لكن ما الذي حصل؟ سأل خورشيد باضطراب وإعياء.
- قبضنا على عائلتين الليلة الماضية، كانتا ترومان التسلل عبر الحدود الى جهتنا، زوجتك وإبنك كانا معهم.
- جميلة! لماذا، كيف؟ ودون علمي! أين كانت ستذهب؟
مع صوت الجرس وهو يرن التفت خورشيد .. كانت جميلة واحمد برفقة احد الحراس يدخلون الغرفة.
- هذه عائلتك؟
كان خورشيد مذهولاً لا يقوى على ا لكلام، نادى احمد "بابا" وهرع يحتضنه.
- خورشيد، إمض لنا هنا وخذ عائلتك.
كانوا صامتين طوال طريق العودة ... وفي ذات الوقت كان دشتي كالذي يشكو آلاماً في ضرسه لا يهدأ في مكان وهو يبحث عن ئيسف في كازينوهات القمار والحانات ... في البيت كانت جميلة جالسة بصمت وخورشيد يبدو كالثور الهائج الذي تلقى طعنة من سيف مبارز في حلبة مصارعة الثيران الاسبانية، وبرؤية الراية الحمراء بات اكثر هيجاناً، كان ينظر الى جميلة وعيناه محمرتان.
- اين كنت ترومين الذهاب، ها؟ تكلمي، قولي شيئاً.
وجميلة تجلس صامتة مذهولة كالمصعوق، كان سكوتها يستفز اعصاب خورشيد اكثر . نظراتها الغريبة كانت تعكس مدى الكآبة التي تعتريها وحالتها النفسية غير المستقرة . أخيراً ركع خورشيد على ركبتيه امامها واخذ كفيها بين يديه، لكن جميلة سحبت يديها

وقامت دون أن تتفوه بكلمة واتجهت الى المطبخ، ثم أغلقت على نفسها الباب.
صفق باب السيارة وقال بعصبية "إبن الكلب، إين اختفيت؟ " عند دوّار (داي شيرين) أدار مقود السيارة كمن تذكر شيئاً فجأة، وقف امام مدخل الكازينو، في الداخل اخذ يتجول ببصره بين الموائد . كانت الكازينو ملآى على آخرها بلاعبي البليارد والدومينة .. "حتى لو كان هنا، كيف سأراه؟ هذ ه المدينة قائمة على المقاهي والجوامع" أدار رأسه يمنة ويسرة، وفجأة "آه، ذاك هو الملعون يجلس أمام شاشة الدش يمتّع عينيه بمشاهدة أجساد بنات السلطان شبه العاريات" وجلس الى جانبه.
- ايها البائس، لقد أُصبت بالدوار وانا أبحث عنك، هيا انهض!
- أين؟ قال ئيسف بصوت متعب ودون إكتراث.
- انهض هيا... ومد يده تحت إبطه وبعد حين كانا يجتازان وادي (بيسري).
- ألن تقول لي الى أين نحن ذاهبان؟
- (زاويتة)، أشتهي سيخاً من اللحم المشوي وكأس بيرة باردة.
- من يرى جنابك (وطبطب على كتفه) وكيس العظام هذا لن يصدق أن نفسك دنيئة للأكل! عفواً ولكنك ما زلتَ وجيهاً.
في الوادي الذي انسحبت عليه الظلال وفي بقعة عالية بين الصخور، في مساحة بعرض مترين وطول أربعة أمتار تقريباً وتبدو كروضة معلقة، جلس الاثنان.
رفع الكأس وكرع محتوياتها مرة واحدة ثم أفرغ ما بقي من البيرة في القدح وظل ينظر اليه، كانت الفقاعات تتشكل وهي تتحرك الى

السطح. تطلع الى ئيسف وهو ينظر الى الفتاة التي كانت ترتدي بنطالاً من الجينز وتيشرتاً ورد ياً وتشرب البيبسي من العلبة مباشرة وهي تتحدث مع عائلتها وهم يضحكون جميعاً.

- إنها حلوة... قال دشتي.

- جداً... قال ئيسف دون وعي ثم التفت الى دشتي... من تقصد!؟

- تلك التي تنظر اليها باعجاب، المرأة الكوردية جوهرة مطمورة في الطين ...إجترع قليلاً من المشروب وأردف يقول ... ئيسف، الفقر والكفر توأمان، ينموان ويكبران، يستوطنان وينتشران سوية.. ينهشان من لحم البشر ويدوسان على انسانية المرء وكرامته ويسببان له اليأس والكآبة والضعف.

كان ئيسف يصغي مندهشاً وعينه على الفتاة وهي تركب السيارة مع عائلتها ثم تختفي السيارة عند منعطف الوادي ... التفت الى دشتي:

- لو كنتَ في إحدى القرى القريبة من الحدود لدعوك بالملاّ ذي الاثني عشر عِلماً.

- نحن أيضاً مثلهم، الناس يحترموننا في ا لظاهر، وفي سرهم يمطروننا باللعنات، هم بأسم الله ونحن بأسم القومية وحقوق الانسان والمدنية والديمقراطية نخدعهم ... قال دشتي بمرارة ثم أردف:

- ئيسف، ذات مرة سألتني "من أين لك هذا؟ " ارجو أن تعلم أن جيبي كان دوماً أوسع مما كنت أمتلك، والعائلة كانت تطلب كل مستلزمات المعيشة، تخرج من البيت فيأتي صاحب الدار ويرفع الايجار من ثمانمائة الى ألف دينار وايجار ستة اشهر سلفاً،

وراتبي الشهري ستمائة دينار ! أكلُنا بات يتألف من الخبز والطماطة والباذنجان والبطيخ، كنت أخجل من الذهاب الى الدائرة بملابسي، فكيف والولد في الاعدادية وا لبنت في المتوسطة! حتى جاء ذلك اليوم... جلس أحد الأسياد بجانبي، كلماته في أذني هزت كياني وايقظتني من يأس مدمر عندما قال "أستاذ، أرجو أن تنهي معاملتي...." وكانت معاملته تخفي بين طيات أوراقها مالاً، جرة قلم مقابل راتب سنة بكاملها ... وهكذا خطوت الخطوة الاولى، والصعبة، لكني غدوت مثل الذي نهل من البحر، كلما قبضت طلبتُ أكثر . بأموال الرشوة اشتريت طعام الافطار للصائمين وملابس للمصلين، ولو كانت أمي العجوز على قيد الحياة لأرسلتها بالطبع الى حج بيت الله الحرام.

كان ئيسف يصغي اليه دون ان يحول نظره، وكانت يدا دشتي تتحركان بأسلوب تمثيلي اثناء الحديث.

- كانت أصعب لحظة في حياتي، الاسم والامانة والاخلاق وكل شئ في كفة ميزان مقابل مبلغ من المال . الانسان (ورفع كأسه) كائن غريب، عندما كنت انساناً عفيفاً كانوا ينظرون الي باحتقار، حتى زوجتي، وعندما غدوت لصاً ومرتشياً، أصبحت الاستاذ المحترم، نعم (وضرب صدره بكفه وتابع بحرقة)... لقد فقدت راحة الضمير، هدوء النفس واحترامي لذاتي ... (وضغط براحتي كفيه على صدغيه)... غدونا كقوم موسى التائهين في صحراء سيناء، قلوبنا تعرف الحقيقة وأيادينا ترتكب المعاصي، ماذا كانوا ينتظرون مني أن افعل؟

وارتفع صروته حتى أن الحطاب، الذي كان يسوق حماره المحمل بالحطب أمامه، التفت جهة الصوت عندما قال:
- ديناران واثنا عشر درهماً للطفل شهرياً؟ ... (وضرب الطاولة بقبضة يده)... لم يعطوني ما يكفي معيشتي، ومثل الداء الذي ظهر في الصحراء بأسم الله في يوم عاشورائي، جماعتنا أيضاً حطوا في ذلك الاربعاء المقدس من شهر آذار في المدينة وداسوا على كل المقدسات، وغدا تاج محل بالنسبة الى قصورهم مجرد قن دجاج، وفي نهاية كل أسبوع يتم تبرير ما يرتكبوه على منابر الجوامع.. بين رمضان ورمضان، جمعة وجمعة، صلاة وصلاة، تُمحى كل الذنوب والخطايا، السرقة والبغاء و.. و.. وكلها، وعندما تضع رأسك على الوسادة بعد ليلة وردية منتشياً من شرب دماء الناس وعرقهم، أُطلبْ التوبة والصفح من الله، أَظْهِر ندمك، إقرأ المعوذتين وآية الكرسي وانتهى الامر ! لقد خلطنا الدين والسياسة والقومية ببعضها والنتيجة لم يتبق لنا لا أخلاق الدين ولا كرامة الدولة.
- عندما تغدو التجربة اقوى من الندم، نفقد الاحساس بالذنب.
قال ئيسف وكان يجرّ باصبعه خطوطاً على المنضدة على هيئة شجرة، ثم رفع رأسه ونظر الى دشتي الذي كان يبدو لحظتها تعباً كحمار فُك لتوه من تحت النير واستدرك:
- إذا كنا طيوراً على شج رة كوردستان فإننا لن نكون، في أحسن الاحوال، أفضل من طائر نقار الخشب الذي يملأ جذعها ثقوباً حتى يصنع عشاً لنفسه.

في طريق العودة كان دشتي يقود السيارة بسرعة، ناول ئيسف ورقة في يده:
- هذا الاخ المُزَوَّر من اهالي منطقة (الشورة) وعليك إحضاره غداً.
- لا أستطيع، أنا منهك.
ستكون كالمرة السابقة، وحصتك ستكون كبيرة.
- قلت لك لا.
- اسمعني ئيسف، لقد اعطيت كلمتي، يجب ان تأتي به ولك خمسة الاف اخرى فوقها.
وضرب المقود بقبضة يده بغضب. فكر ئيسف ملياً في الامر وهو يحدث نفسه "كل ما كنت أملكه ذهب مع أمواج نهر الخابور في ليلة واحدة... عدت مرة أخرى حافٍ إبنُ مُفلِسْ"
أودع الورقة في جيبه دون أن ينظر اليها.
أخرج علبة السجائر من جيبه واشعل سيجارة جديدة بسابقتها، كانت المنفضة قد امتلأت بأعقاب السجائر، كانت جميلة لا تزال في المطبخ وخورشيد في الصالة وبينهما ما يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة... فجأة، وكمن تذكر شيئاً، نهض وقصد مسرعاً غرفة النوم، فتح باب خزانة الملابس واخرج الحقيبة الدبلوماسية ووضعها على السرير، وعندما فتحها جمدت الدماء في عروقه، جحظت عيناه... وقف فوق رأس جميلة:
- اين النقود، اين الذهب؟
أمسكها من كتفيها وانهضها، أمسك برأسها بين يديه واخذ يهزه بشكل هستيري وبجنون وهو يكرر سؤاله "اين الذهب والمال؟ "

أزاحت جميلة يديه عنها وهي لا تزال صامتة وخرجت، لحق بها الى الصالة، امسكها من ذراعها وأدارها نحوه:
- قولي شيئاً، أين المال؟
- وقعنا بين أيدي الجندرمة، سلبونا كل ما نملك، أخذوا كل شئ.
أسرع الى الخارج ونادى على أحمد الذي كان يلعب الكرة مع أصحابه.
- من كان معكم؟
- ئيسف كان معنا.
- اعتقلوكم؟
- نعم.
عندما عاد الى الداخل كان في حالة نفسية هائجة، امسك بكتفي جميلة، هزها بعنف وغضب:
- كل ذلك الذهب والمال، أيتها العاهرة، كل ذلك ضحيت به من أجل ما تحت سرّتك، ومع من.. ئيسو المقامر!؟
لم يعد في إمكان أذنيها تحمل كلمات خورشيد التي كانت تنزل عليها كالمطارق .. ضاق صدرها وكانت بالكاد تسحب أنفاسها، صرّت بقوة على أسنانها، آلامُ مخاضِ نفسِها الحبلى بالكآبة باتت اليوم أشد وأعنف، آلامُ طلقٍ باتت نوباته تتسارع لتقرّب الولادة... حاولت لكنها لم تستطع المقاومة . لا تعرق لا دموع لا صرخات ولا استغاثات، آلام مخاض نفسها إستحالت بالوناً إنفجر بوجه خورشيد... أزاحته جانباً وهي تصرخ فيه:

- العاهرة هي أمك، يا إبن القحبة، لو كنت أنت رجلاً لما أصبحت أنا عاهرة، والان أيضاً لو كنت رجلاً بحق لطلقتني، ولكنك لست كذلك، فأنت ديوّث!
وملأت وجهه بصاقاً.
أمرُ الطلاقِ أو الهروب مع رجل آخر ليس مهماً بالنسبة لخورشيد الديوث، فكل همه هو المال.
كان لكلماته النابية مفعول السم في جسمها، ونتيجة لأغترابِ نفسِها المزمن لسنوات طوال بدأت تشعر بحريق مدمر بلا حدود يجتاح أعماقها، وكانت روحها وكأنها تسحب من صدرها بالملقط، تود قول شئ ما، لكن صوتها لا يخرج، انتفضت العفاريت والسحرة في اعماقها، ومن خلال الغشاوة التي كانت تظلل عينيها رأت شفتي خورشيد تتحركان لكنها لم تكن تسمع شيئاً .. تود لو تصرخ بكل قوتها وتبوح بك ل الذي تكوم في نفسها على مدى الاعوام الماضية وغدا طبقات، تود لو تغدو قنبلة وتنفجر بوجه خورشيد ... لحظة بلحظة كان الضغط النفسي يزداد والروح تتقهقر، وكالمرعوبة قادتها قدماها بلا وعي منها صوب الحمّام.
في نقطة التفتيش كان الركاب واقفين في طابور واحد، أخَذَ هوياتهم واحداً بعد الاخر ... ونقاطُ التفتيش في العراق، خاصة بعد الحصار الاقتصادي، غدت كأماكن عبور قوافل العصور الوسطى، المهم دفع الجزية والضريبة، يقال إن اسم دهوك قد جاء من ذلك .. (دو.. هوك) أي حفنتين مقابل عبور أية حمولة من وادي المدينة . دقق النظر في الهوية وقا ل "يوسف صبري "،

احتفظَ بالهوية وتابع تفتيش الطابور وبعد أن أخذ حصته من الحلو والسجائر والنقود، قال للركاب "إركبوا، يوسف تعال أنت"
وفي غرفة السيطرة رفع سماعة الهاتف:
- آلو، مساء الخير سيدي، السيطرة معكم... يوسف صبري هنا.
- .....
- نعم سيدي نفس الاوصاف.
كان يوسف في لجة التفكير، يبني ويقوض في رأسه، وبعد وقت قصير فُتح الباب . أدى الانضباط التحية العسكرية، رفع ئيسف رأسه ، كان ذلك الشخص الذي اشترى منه دشتي قطعة الارض .. نهض مسروراً ومد يده للسلام عليه، لكن عينيه كانتا تقدحان بما هو أكبر من الغضب. رفع كفه وصفعه بكل ما أوتي من قوة، وجد ئيسف نفسه ينقلب فوق الطاولة، قال بصوت مرتفع:
- تستهزأون بي! أيها الكورد أولاد القحبة ، والله سأسلخ جلودكم... غدا ئيسف بين يديه كالجرو بين أيدي أطفال يلهون به.
- قطعة الارض التي قيمتها أربعمائة الف دينار من الطبعة السويسرية تأخذوها مني بمائة وستين ألف!
- أقسم بالله ومحمّد وعليّ أنا لا أعرف شيئاً ... وكان يعرف تمام المعرفة أنه ليس لثلاثتهم قيمةَ رأسِ بصلةٍ حمراء عند البعثي . فتشوا جيوبه ووضعوا كل ما وجدوه فيها على الطاولة . لمح الانضباط كتابةً على ظهر ورقة، رفعها وأخذ يقرأ . توسعت حدقتا عينيه:
- سيدي أنظر الى هذه، اسرائيل!

سحبها الضابط من بين يديه بسرعة، وبذهولٍ من حصل على الشيفرة الفيزياوية الخاصة بالقنبلة الذرية قال:
- من أين جئت بهذه، تتجسس لصالح اسرائيل؟ ألم يكفكم انتم الكورد انكم جلبتم الصليبيين الى أرض المسلمين؟ يا أحفاد أبو كافر الخراساني، تتجسسون لصالح اسرائيل أيضاً؟
وكان الانهيار بالكامل، يعلم أن علم اسرائيل يرفرف عالياً في قلب بعض العواصم العربية، لكنه كُردي، والعرب يريدون شخصاً ما ليُعلِّقوا في رقبته سلسلة هزائمهم . لا بد أن يكون هناك دوماً سبئيٌّ ما، وإن لم يوجد يجب إختلاقه.
- من رفاقك؟ تكلم.
- سأقول لكم الحقيقة... رغم أنه كان متاكداً في قرارة نفسه انه لا أمل له، لكن الحياة حلوة والروح عزيزة، وسرد له كل الحكاية.
خورشيد الذي لا حول له ولا قوة، كان من حرقة قلبه على فقدان المال لا يتوقف عن الرواح والمجئ، كان يقوقئ كالدجاجة التي ستضع بيضتها او كعجوزٍ عربية في مأتم، تُدمي خديها من اللطم وتنفش شعرها، كان يشتم، يهدد ويتوعد، وأحياناً يلطم على رأسه .
فجأة ملأت صرخة مهولة أرجاء المنزل، حتى وصلت مسامع الجيران، التفت جهة الحمام، ذهل ! شاهد عموداً من النار يخرج من الحمام يصرخ ويستغيث ... اضطرب ولم يعر ف كيف يتصرف، حاول أن يشق ملابسها وينزعها عنها بيديه. لحظتئذ قفز جارهم من فوق سياج السطح حاملاً بطانية ولفها بها . إنصهر الجلد والملابس ببعضها، وخلال لحظات كان البيت يعج بالناس .

كان كل سكان الزقاق، ذكوراً واناثاً، صغاراً وكباراً قد احتشدوا هناك وكل واحد منهم يتساءل "ما الذي حدث؟"....
- كنتَ ستهرب مع المرأة المتزوجة الى اسرائيل؟ قل شيئاً معقولاً يدخل الدماغ... قال الضابط وهو يضحك.
أركبوا ئيسف في ظهر اللاندكروزر ... وأغلقوا باب سيارة الاسعاف.

١٦

كان الاستاذ الجالس وراء الطاولة وعَبدي الواقف أ مامه يتحدثان عندما أدخلوا نسرين الى الغرفة.

- ماذا! تتمنعين وتريدين تحدي الجميع؟ يبدو انك صدقت ما يقال عن حقوق المرأة وحقوق الانسان، عودي الى بيت زوجك ولا يمكنك ان تخرجي دون إذنه، واذا خرجت فان عقابك سيكون شديداً.

- لم أطالب بشئ هو ليس من حقي... قالت بثقة.

- حقك هو فقط ما يمنحه لك زوجك، يجب ان تعودي منذ اللحظة... قال لها وهو يلوح بأصبعه مهدداً.

- لن أعود تحت نير ذلك الرجل ولو مزقوني قطعاً.

- ومن قال اننا لن نفعل ذلك؟ وأشار الى الحارس .. أخرِجوها.. ثم التفت الى عبدي وأردف:

- هذه الجرأة ليست اعتيادية، من أين ل ها بها؟ اذا لم تخِفْ سوف تجلب لكم العار.

- سأملأ رأسها جمراً قبل ان تنكّس رؤوسنا . هل لي باستعمال التلفون؟

- الو سيدي، إن رأسها أصلب من صخور (آميدي)!

- ....

- كيف يا سيدي لسنا رجالاً!!

- .....

- سيدي أرجو ان تقول للاستاذ كي يسمح لها بالخروج ... وناول الاستاذ سماعة الهاتف وخرج . وقف في الجهة الاخرى من الشارع وسحب مسدسه من زناره:

- أنتِ جلبته لنفسك!

وظلت عيناه تراقبان المدخل.

يوم الاحد، وقسم من أهل المدينة ومن خارجها ينتظرون واقفين عند مدخل مستشفى آزادي .. كلهم نسخة طبق الاصل من عباءة عربية سوداء .. بينهم عدد قليل من الرجال . فتح افراد الشرطة البوابة الكبيرة وكأفراد مملكة النمل إتجهت النساء صوب اليمين فيما اتخذ الرجال جهة المدخل الجنوبي . كان السلم الذي يخترق البناية المؤلفة من سبعة طوابق، من الداخل، يلتف حول نفسه كالثعبان. إرتقوا السلالم وكانت أصوات أقدامهم كصوت رت ل جنود في ميدان التدريب تدق كطبول حربٍ يقرعها أفراد قبيلة افريقية.

في ردهات المستشفى كان الناس يتحلقون حول أسرّة المرضى.... نفس ملامح جميلة، لكن الاخيرة كانت أطول وأإكثر بياضاً، وقفت عند رأسها ودموعها تنهمر:

- جميلة، أختاه، ما الذي فعلته بنفسك؟

فتحت جميلة، الراقدة تحت قفص مغطى بناموسية بيضاء، عينين زائغتين وبالكاد اوصلت كلماتها:

- لكي أستطيع الرجوع الى الله، كان يتعين علي أن أطهر هذا الجسد المذنب بالنار...

خرجت نسرين ودلفت الى داخل الزقاق، إنطلق عَبدي وعبر الشارع بسرعة ونادى عليها:
- نسرين!
لكن نسرين لم تأبه به، وسّعت من خطواتها وأسرعت في مشيتها .
وعند منتصف الزقاق لحق بها:
- نسرين، أقولها لك للمرة الاخيرة، عودي الى بيت رجلك!
التفتت اليه نسرين وقالت له:
- انا لا أرى أحداً اكثر رجولة من أخي... وذهبت.
- ألن تعودي؟ ... قالها بصوت مرتفع، التفت رجل وامرأة عند ناصية الزقاق جهة الصوت، والتفتت نسرين أيضاً، كان قد شهر المسدس في يده وقد ألقمه طلقة!.....
- خورشيد بات كالمجانين!
- لا أظن حتى نار جهنم تستطيع إيواءه!
رفع يده حتى مستوى صدرها، ونسرين تنظر اليه بعيون جامدة ملؤها الكره، صدرها غدا هدفاً، وبطلقتين متتاليتين إنهارت كشجرة قُطعت من أصلها.
كان عنق جميلة يرتخي شيئاً فشيئاً ورأسها يميل الى جانب ولسانها يتثاقل أكثر "ربي إغفر لي.. إغفر...."
- خورشيد، لقد ماتت جميلة !... صرخت اختها، وكان خورشيد واقفا عند باب الردهة.
انطلق يعدو هارباً نحو بيت الآغا ... إلتمّ الناس حولها، فتح أحدهم عباءتها السوداء ... غطى الممرض جثمان جميلة بالشرشف الابيض، غدا المكان كالطواف بالحجر الاسود والناس يدورون

حوله والكل يتساءلون "من كانت، ولماذا؟ ..." لكن أحدا منهم لم يتلق الاجابة، وهكذا راح المجتمع المسربل بكفن العادات والتقاليد الاجتماعية المقدسة يطلق العنان لتفكيره الخيالي، وانفتحت عقدة لسان شهرزاد.

وقف أمام الآغا، وضع يديه على خاصرتيه، يلهث متقطع الانفاس كذئب طاردته مجموعة كلاب

- لقد قتلتها.

- ماذا!... ماذا فعلت؟!...وطفحت ملامحه بالسرور.

- قتلتُ نسرين.

- كيف قتلتها يا رجل ! لقد استعجلت يا عبدي، ولكن انا لا أتخلى عن أقربائي، اذهب للداخل ولا تخف.

- خادمكم انا سيدي.

أخذ يذرع الصالة الطويلة الواسعة بخطوات قصيرة جيئة وذهاباً وهو يفرك كفيه ببعضيهما ويقول بسعادة "منذ الان لن يذهبوا الى الجامع بقدر ما سيأتون الى ديواني، ولن يقولوا يا رب بقدر ما سيقولون يا سيدي"

وصلت سيارة الاسعاف الى بوابة مستشفى آزادي وفيها جثمان نسرين، أشار الشرطي، حارس البوابة، فخرجت سيارة تتبعها بيك آب وعلى ظهرها جنازة، يجلس رجل الى جانب منها وفي الجانب الاخر يجلس رجلان، أحدهما خورشيد ويداه ملفوفتان بالضماد، صامتاً دون حراك فوق الجنازة وهيئت ه أقرب ما تكون الى مجنون.

كان الناس عند البوابة ينظرون وامرأة تقول لصاحبتها:

- للاسف، كانت جميلة وشابة ولديها طفل واحد فقط!
خرجت جنازة جميلة ودخل جثمان نسرين من نفس البوابة والناس هم نفس الناس، لا يرحمون ولا يدعون رحمة الله تنزل، لسانهم سيف ذو حدين... المرأة الشريفة لانها قُتلت بيد إبن عمها فلا بد أن تكون شائنة وبموتها يصون الله هذا الشعب المؤمن المثالي في أخلاقياته، اما الشائنة لانها أحرقت نفسها، فليرحمها الله!

* * *

أمضى آزاد نهاراً طيباً يوم المهرجان والليلة التي قضاها في الفندق بصحبة اصدقائه، وفي الصباح الباكر غادروا مدينة اربيل. عند منعطفات قمة (كوزو) المقابلة للجبل الابيض المشرف على دهوك وبأفكاره المشوشة ونفسِه القلقة حاول أن يجد تفسيراً لحلم ليلة امس. المشكلة في الاحلام أن المرء ينساها بسرعة ومشكلة هذا الحلم انه لا يستطيع نسى انه، وربما كان مردّه الى الاعتقاد السائد لدى عامة الكورد بان احلام الفجر حقيقية. أسند ظهره الى مقعد السيارة وأغمض عينيه... كانت انثى الوعل تقفز من صخرة الى اخرى في ذلك الجبل الوعر، ارتفع الضباب من اسفل الوادي حتى أغرقه بأكمله، قفزت انثى الوعل من صخرة واختف ت في

الضباب، ثم شاهدها تسقط وتتهاوى على الصخور وترتطم بها قبل أن تهوي في عمق الوادي السحيق وتختفي عن ناظريه...
فرك عينيه وجبهته بيديه، لحظتها تذكر دلبَر وقال مع نفسه "في خضم الحياة، ورغم كل شئ فان حبك بالنسبة لي ما زال خيط أمل، اليوم انا سعيد ومن المؤكد انك ايضاً في الخارج تصنعين السعادة لنفسك، ولكن لن يمضي وقت طويل حتى تبكي تلك العينان الخضراوان ندماً، ولن تجدين أحداً حواليك يواسيك، يومها فقط ستدركين انك بعت نفسك رخيصة.."
- فقط حاول ان لا تخسر نفسك، عندما يتحول المثقف الى تابع فانه يعلن موته...
كان الجالس في المقدمة قد استدار الى زملائه وهو يخطب فيهم.
- استاذ، هذه الحكمة لم تأت من فراغ، انها نتاج تجارب!
رد الذي يجلس جوار آزاد، لكن الاخير لم يكن منتبهاً اليه، او ربما لم يكترث له، لانه كان يفكر في شيرين ويتردد صدى كلماتها في اذنيه:
- سأدعو لك.
- هل تريدين شيئا محدداً؟
- نعم.
- ما هو؟
- ارجع بسرعة، سأكون في انتظارك.
ربما كان أجمل شئ هو الشعور بالرضا.
بعد العصر كان يترجل من الباص عند ناصية زقاق بيتهم، طرق الباب عدة مرات، لكن أحداً لم يفتحه، اخذ يتطلع الى الداخل من

فوق الباب فوجد البيت مقفراً . خرجت جارتهم على صوت طرقات الباب.
- بني، لا أحد في البيت.
- واين ذهبوا؟
- جاء شخص وذهبوا معه الى المستشفى، كانوا يتحدثون عن نسرين.
- المستشفى!
دار على أعقابه، وعند بوابة المستشفى نزل من التاكسي.
مقابل قسم الطوارئ، رأى أحد أبناء عمومته يمسك بيد والده وهو يساعده على ركوب السيارة وأمه بين أيدي النساء والجميع يبكي بحرقة ومرارة. أسرع في مشيته، توجه اليه خاله:
- جئت يا خال؟ ... كانت الكلمات تخرج من فم خاله بصعوبة وحزن. شاهد جنازة في سيارة البيك آب .. قال لخاله:
- خالي، من هذا؟
كان يكفكف دموعه بطرف نطاقه القماشي، وقبل أن ينطق لسانه بالاسم، أزاح البطانية قليلاً عن الجثمان ... طفرت الدموع من عيني آزاد وانسالت قطرةً قطرة على وجه عروس البحر النائمة التي غادرها دفء الحياة منذ وقت طويل ... وسارت البيك آب باتجاه المثوى الاخير.

١٧

فتح باب غرفة المدير، ألقى عليه تحية الصباح ووضع أمامه سرجلاً كبيراً.

- صباح الخير دشتي، خيراً.. ألم تنم جيداً؟

- علمتُ هذا الصباح أن ئيسف قد أُلقي القبض عليه في سيطرة الموصل، وقد تم تحويله الى المخابرت رأساً.

- وماذا نفعل!؟

قال بلا أدنى اكتراث وهو يقلب صفحات السجل ويُمضي عليها.

- كيف ماذا نفعل ! ئيسف إعتُقل وعد ونا المحبوب جداً لم يأت، يعنني أننا لن نقبض المال أيضاً.

كان دشتي يتكلم وهو يحرك بيديه.

- أرسِل واحداً غيره... وطوى السجل.

- استاذ، عملنا لا يخلو من خطورة ومجازفة، لذلك من غير الممكن أن نرسل شخصاً مختلفاً كل مرة، صحيح أن الناس في هذه المدينة ساكتون، لكنهم ليسوا عمياناً!

- لا تخف دشتي، الصمت هو عمي، أرسل واحداً آخر حتى يعود ئيسف.

- نعم استاذ، ولكن قبل أن أرسل شخصاً دعنا نعرف شيئا عن ئيسف، فنحن لن نعثر على واحد مثله.

- حسناً، حسناً، ولكن المهم الان أن يأتي غانم ، وبعد ذلك ئيسف.

فتح الباب وهمّ بالخروج، لكنه ع اد وأغلق الباب والتفت الى المدير.
- خيراً، هل نسيت شيئاً؟
نظر اليه المدير من فوق عدستي نظارته.
- لا أدري، لكني سمعت إشاعة... وتناول سماعة الهاتف.
- منذ متى وانت تهتم بالشائعات...قال الاستاذ ضاحكاً.
- آلو، مستشفى آزادي؟ أتساءل إن كانت امرأة قد ماتت محترقة في الايام الثلاثة الماضية؟
مع كلمتي، الموت والحرق، إنتصبت أذنا الاستاذ كأذني أرنب بري.
- عفواً هل يمكنني معرفة اسمها؟
- ....
ذهل، ووضع سماعة الهاتف.
- دشتي، ما بالك جمدت هكذا! من حرقت نفسها وماتت؟
- ماتت جميلة.
- جميلة!
- جميلة خورشيد حرقت نفسها.
- جميلة حرقت نفسها! لماذا؟
بدا كشخص يسمع شيئاً ولا يصدق.
- عندما ألتقي خورشيد سأعرف منه كل شئ... وذهب.
- للاسف، للاسف، في الحقيقة لقد كانت جميلة امرأة رائعة ....هم السابقون ونحن اللاحقون، إنّا لله وانا اليه راجعون.
كان المدير يحدث نفسه وهو يهز رأسه.

مع غلق الباب كان دشتي يقول بصوت منخفض وباستياء "عندما تحل المشاكل فانها تأتي الواحدة تلو الاخرى، مثل السلسة"

* * *

مبنى مديرية الشرطة وفيه أقدم سجن في دهوك، يقع السجن في قلب المدينة وقد بُنيت جدرانه من الكلس، وفي باحة السجن قاعات المساجين بشبكاتها الفولاذية سقوفها وسقوفها المسيجة بالاسلاك الشائكة. ربما طالت الانتفاضة كل شئ ومكان، إلا هذا الجحيم الذي لا تزال تسري فيه وتُنَّفذ قوانين البعث مع الكثير من التسيب الذي كان موجوداً في زمن البعث بدون شك ولكن بشكل مستتر.
خلف القضبان، كان عبدي واقفاً بين المساجين وقد نكّس رأسه امام شقيقه الذي كان يُقرِّعَه بشدة:
- كيف أقدمت على ذلك، من أعطاك الحق؟ صحيح انها إبنة عمك، ولكن كان لديها أب وأشقاء، أخزاك الله لقد فضحتنا بين الناس، كل من يلتقينا يسأل "لماذا قتل عبدي ابنة عمه؟ " من يستطيع إفهام هؤلاء الناس العاطلين عن العم ل الذين لو كانوا يفهمون لما وصلنا الى هذه الحال؟ بفعلتك هذه كأنك رفعت النداء وقلت.. أيها الناس، إبنة عمي قحبة .. أيها الخنزير لقد ظلمتها مرتين، مرة عندما قتلتها وهي بريئة، والثانية انك لوثت سمعتها، ميتة واحدة هي عقوبة قليلة بحقك"

عندما رفع عبدي رأسه كانت عى ناه تطفحان بالندم، قال بصوت ذليل:
- اخي، لقد أوغر صدري وخدعني . لقد دبر لي مكيدة، إبن الكلب دفعني للقتل وفي ذات الليلة سلمني بيد الشرطة، وفي ديوانه وضعوا الكلبجات في يدي.
- صديقُ الغراب[١٨]، لقد تخلينا جميعاً عنك لكنك لم تترك تبعيتك له حتى أوصلك الى هنا، ما ذا كنت تتصور، أن يرفع خائن شعبه البندقية من أجلك ويحول سطح داره الى ساترٍ حربي؟
- فارس، أخي أنا على ذمتكم...
- وأين كانت ذمتك؟ فليدافع عنك الذي قتلتَ من أجله.
قطع كلامه وصرخ به ثم أدار له ظهره واتجه صوب باب الخروج... كان عبدي يمسك بالقضبان كالمصلوب وهو ينادي بذلّة واستجداء:
- لا تتركني، ارجوك.....
كان صوته يعلو فوق البناية، والكلّ عدا شقيقه ينظرون اليه.

* * *

كان دشتي يطرق الباب للمرة الثالثة في عصر ذلك اليوم، وعندما فقد الامل بفتح الباب، اضطر الى طرق باب الجيران وفتحت امرأة مسنة الباب.
- تفضل بنبي.
- عفواً ولكن اين ذهب جاركم الاستاذ خورشيد؟

- بعد المأتم جاء مرة واحدة وأخذ معه بعض الحاجيات ولم يعد بعدها مرة اخرى.
- حسناً ولكن الا تعرفين أين يمكنني العثور عليه، لدي عمل ضروري معه؟
- إنه في بيت شقيقته، في حي الشقق، اسأل الدكان المقابل، إنهم أقارب صهره.
إرتقى درجات السلم نحو الطابق الثالث، توقف ووضع يديه على خاصرتيه وتنفس بعمق، شعر بالتعب والانهاك والتثاقل في رجليه. تطلع في البلاط والجدران المهترئة والنوافذ المتكسرة . طرق الباب، خرجت صبية تلبس تيشرتاً بدا كلوحة حصةِ اللغة الانكليزية، شعرها قصير وبرعما نهديها بدءا بالنمو كوردتي جلنار تفتحتا للتو، ولولا الخرزة الحمراء في قرطي أذنيها لما عرف انها فتاة.
- نعم، تفضل.
- هل الاستاذ خورشيد في البيت؟
- مَنْ أقول له؟
- دشتي.
مع دخولها البيت كانت تنادي "خالي، خالي"
جاء خورشيد وهو يرتدي بيجاما بلون سمائي فاتح وذقنه غير حليقة.. ذكّرته البيجاما بأيام الاوروزدي، لانه اشترى واحدة مثلها، في ذلك اليوم عندما نشب نزاع أمام كوة قطع تذاكر الشراء بعد أن إختلط طابور النساء مع الرجال وقام أحد الرجال بـ .....

أعاده صوت خورشيد من ذكرى تلك الايام.
- أهلا وسهلاً أستاذ دشتي تفضل.
كانت آثار الحروق ما زالت بادية على يده اليسرى، أما اليمنى فقد كانت ملفوفة.
- كيف الحال خورشيد، اين انت؟
- ماذا عساي أفعل، خسرت كل شئ، الزوجة وتعب السنين . ولكن هل ستظل واقفاً هكذا؟
- أريد ان أكلمك... لا تبدل ملابسك لن نتأخر.
اجتازت السيارة شارع السدة، ووق فت في مكان يشرف على البحيرة التي ظللها الجبل حتى منتصفها، كانا يجلسان في السيارة وقد فتحا أبوابها، نسمات الهواء حركت تياراً داخل السيارة، أشعل دشتي سيجارة بصعوبة وناولها الى خورشيد.
- كل ما تبقى لك أغراض منزلية بالية، خورشيد ... الحيّ أبقى من الميت وانت لديك ولد.
- لم أعد أهتم، نفسي تعاف كل شئ.
- من الان فصاعداً ستشتغل معي فقط، ويجب أن تعوض ما فقدته وتبدأ العمل منذ الغد.
ووضع قصاصة ورق في جيبه وطبطب على كتفه وهو يقول:
- هذا إسمه وعنوانه .. إجلبه معك غداً.

١٨

في كبد السماء فوق قمة جبل (مام سين) الواقع شرق المدينة كانت نجمة الصباح تتلألأ مشرقة، أيّ أن البرد على الاعتاب في كوردستان. ورغم شروق شمس ذلك النهار إلا ان الرياح الشرقية في ذلك الصباح كانت باردة . وككل يوم كان تفتيش السيارات وتدقيق هويات المسافرين يجري بحرص ودقة في جانب الشارع المؤدي الى الموصل . في تلك الايام انتشرت شائعة في مدينة دهوك كما يسري السم في عروق الدم وذلك كجزء من الحرب النفسية التي ما فتأ النظام يمارسها ومنذ سنوات ضد الكورد، وملخص الشائعة ان النظام قد سحب مدفعيته الى منطقة (فايدة) المحاذية ووجه فوهات المدافع النمساوية الى المدينة، وان ا لاسد المكبل بالسلاسل والاصفاد قد صرّح بانه سيقوم بزيارة قصوره في جبل كارة في عيد الفطر، وأن أمريكا ستتخلى عن الكورد مقابل برميل بترول كما فعلت عام ١٩٧٥، وان منطقة حظر الطيران ستلغى . وهكذا فان الذين كانوا يعرفون الحقيقة، كانوا يضحكون بسخرية، والقليل من النا س كانوا يخشون من تكرار مآسي الانفال، أما الاغلبية فكانوا يقولون "فليأتوا، ستكون فرصة للانتقام وسنضع إخوّتهم في كفهم ونقول لهم هذه بضاعتكم ردت اليكم"

كانت نقطة التفتيش تقع بين جانبي الشارع وكانت تضم غرفة للشرطة وغرفة ثانية للاسايش وثالثة للجمارك . طابور السيارات يستطيل ولكن إحدى السيارات لم تقف للتفتيش في الطابور، ورغم ان مثل هذه الظواهر قد قلت كثيراً، ولكن ليس بالامكان القول انها انعدمت، فما زال بعض الناس يرون أنفسهم أعلى من القانون، وهؤلاء طبعاً يعتبرون أنفسهم من قادة الامة، أو ربما من أتباع هؤلاء القادة، و لكي يتميزوا عن عامة الشعب يجب أن يعكروا صفو مياه القرية [١٩]. وهذه الظاهرة ستبقى طالما بقيت نتائج الانتخابات مثل العرب، تسعة وتسعون بالمائة اضافة للاعشار ... توقفت السيارة عند مدخل غرفة الاسايش وترجل دشتي منها ودخل مباشرة الى الغرفة . إستمر بيار في عمله بتدقيق وتفتيش السيارات حتى خرج دشتي مع أبوعلي وهما يمسكان بيدي بعضهما. استأذن بيار من زميله وانسحب الى الغرفة، تناول سماعة الهاتف واستند الى زاوية الباب ليتأكد من ان أحداً لا يسمعه.

- أستاذ... دَشْتي وأبو علي يتمشيان الان، ولا أريد أن أخمن الباقي.

- .....

- نعم... سيارة تاكسي برازيلي؟ حسنا سأكون في الانتظار.

وضع سماعة الهاتف وعاد الى عمله مسرعاً.

انتهيا من مشيهما قرب السيارة، استقل دشتي سيارته وعبر نقطة التفتيش، واستمر أبوعلي في مشيته جيئة وذهاب. كان بيار يراقب الاتجاهين، من الشمال اذا جاءت التاكسي البرازيلي من دهوك،

ومن الجنوب إذا عاد دشتي . فجأة لمح سيارة برازيلي وهي تجنح الى جانب الشارع، ترجل منها ثلاثة اشخاص، رفع أحدهم غطاء المحرك وكالطبيب الجراح أدخل يده في أحشائها، نظر شكري اليها وقال:

- الافضل أن يجمعوا كل سيارات البرازيلي وفي مساء يوم نوروز يشعلوا النار فيها بعد أن يطلقوا إحدى وعشرين إطلاقة.

لمح بيار ادريس بينهم فاتجه صوبهم، ونادى عليهم من بعيد:

- أسرعوا، لايمكنكم الوقوف هنا.

- حسناً أستاذ سندفعها الان.

وجاء ادريس متقدماً صوبه

- لقد عبر الى الجهة الاخرى وهو على وشك العودة ...قال بصوت منخفض.

- ونحن بالانتظار.

وعاد كل واحد الى مكانه.

بكف ملفوفة، سلم الراكب الجالس خلف السائق في الباص القادم من جهة (فايدة) على أبوعلي، ورد عليه الاخير بايماءة من رأسه دون أن يخرج يده من بين عُقدِ نطاقه القماشي.

لاحت سيارة الاستاذ دشتي وبرفقته شخص ما، تسلل ابوعلي الى حافة الشارع القادم من فايدة ولوح بيار بيده الى ادريس، وقف ابوعلي في نقطة التفتيش قبل وصول السيارة وأشار لها بالعبور عندما وصلت، فانطلق دشتي بسيارته صوب جسر (آلوكا) واستدارت السيارة البرازيلي عند نقطة التفتيش وراحت تتبعها دون أن تقترب منها.

في الشارع الذي يخترق منطقة (مالطا) كان غانم يقول لدشتي:
- كم تغيرت دهوك! أصبحت تأخذ معالم مدينة!
- إصبر حتى نصل مركز المدينة.
كان غانم ينظر بدهشة من خلال زجاج نافذة السيارة الى معالم المدينة التي كان ضيفاً ثقيل الظل عليها لسنوات عدة . وما أن وصلا المعسكر القديم، حتى قال:
- ألم يكن هنا مكان مقر اللواء؟
- نعم وسيغدو بعد حين سوبرماركت على الطراز الاوروبي ولاول مرة في العراق.
- وهذا الدير وكان بجانبه مبنى رئاسة صحة المحافظة.
وهنا تذكر الجدارية التي كانت مزينة بصورة (حفظه الله) والان غدت منظراً طبيعياً، وفي الجهة المقابلة كان يقع مقر حزب البعث الرئيسي والان ترفرف في مدخل المبنى أعلام ملونة، وهناك كتابات بحروف كبيرة باللغتين الكوردية والانكليزية على واجهة البناية.
- المقر الرئيسي للحزب، ماذا فعلتم به!؟
- رئاسة جامعة دهوك... وأشار دشتي بسبابته الى الكتابة.
- جامعة في دهوك! قال مندهشاً.
كبرت دهشتهأكثر عندما دخلا قلب المدينة، كان ينظر مذهولاً الى البنايات والسيارات والناس.
- ماذا يقولون عندنا وماذا أرى هنا ! (رفع كفيه للاعلى) سيدي سخّم الله وجهك!

- سخم الله وجوه الذين يستحقون، اذا كنت انت انساناً متحضراً وتعتبر نفسك مثقفاً وتنخدع ببعض الاقاويل، فما ذا تقول عن الصحراوي المقيم في ظل خيمة في تلك البرية التي لا تحضى فيها برؤية ثلاثة اشياء، الشجرة الخضراء والملعقة والجامع؟ الجهل والتكبر أمور متجذرة في نفوسكم مذ خرجتم من جزيرتكم اليباب والمحرومة، تنظرون الى بقية خلق الله بإحتقار، سُقتم الناس بسياط الله في الانفال كما كان يفعل أجدادكم وهم يدفعون بالناس من ضيق الدنيا الى سعة الاخرة . حللتم دماء الكورد وأموالهم وناموسهم على بطونكم وأسفل بطونكم، وفي الهجرة المليونية نهبتم مدننا واليوم ايضاً تتطلعون الى أن تعيدوا ذلك كرة أخرى!

كان غانم يصغي صامتاً، وتذكر وقتها ن هب المدن الايرانية، من قصر شيرين حتى خرمشهر ثم عمليات الانفال في كوردستان عندما كانوا ينقلون ماشية الكورد بالشاحنات العسكرية الى جنوب الموصل، ثم منجم الذهب الذي يدعى الكويت الشقيقة، واليوم هو في الشبع أخو الذئب!

- ها غانم! هل تأكدت الان أن أسوأ قيادة كوردى ة بالنسبة للكرد أفضل من أحسن قيادة أجنبية ولو كانت بأسم الله؟

كان غانم يهز رأسه وهو لا يصدق هذا الذي يراه ويسمعه، في هذه السنوات القليلة تفتحت عيون الكورد وهم يديرون شؤونهم بأنفسهم أفضل من بعض الدول العربية أو بعض دول الشرق الاوسط.. من كان يصدق؟

سحبه دشتي من لجة الافكار هذه عندما قال له:

- صدقني، اليوم ايضاً لو وَقعَ الكورد في موقف الاختيار بين الهجرة والتشرد الجماعي كما حصل في الهجرة المليونية وبين سلطتكم، فانه وبلا أدنى تردد سيختار التشرد . الكورد خرجوا من دهاليزكم المظلمة الى نور الحرية، لكنكم ما زلتم تعى شون في ظلام عصور عبادة الفرد وما زلتم تدعون بقية الامم عُلوجاً، ويبدو أنكم لن تستفيقوا من غفلتكم هذه لزمن طويل.
في صمته، كان غانم يحاول إستعادة ذكريات السنوات التي عاشها في دهوك من أرخبيل ذاكرته وكلمات دشتي تضطرم في إناء رأسه الكبير. وجاء صوت من أعماقه "كل ذلك الظلم والعدوان، كل ذلك القتل والتعذيب والنهب وهتك الاعراض ... والنتيجة هذه! لقد أثبتنا بحروبنا المتواصلة ان عقليتنا لم تخرج بعد عن مدى تأثير نوى التمر وحليب النوق"
- دشتي، اذا كان رأيك أنت ربيب الحزب والثورة بهذا الشكل، فماذا يقول الذي أمضى حياته كلها في التمرد؟
- هم يقولون ما يشعرون به، ونحن نقول عن وعي، لاننا عايشنا صدأ تكبُّركم وإنعدام الضمير لديكم، نسل زياد ويزيد، قاتلكم الله.
وقفت سيارة دشتي عند باب الدائرة، والتاكسي البرازيلي عند ناصية الشارع. في صالة مراجعي الدائرة جلس ادريس بجانب رجل كان يحمل إضبارة في يده، أخرج منديله من جيبه وأخذ يمسح عدستي نظارته وهو يهمس "لقد دخلوا الى غرفة المدير مباشرة"
أشار المستخدم الذي كان يقف عند باب غرفة المدير بيده وقال:
- الاستاذ لديه ضيوف.

تكلم ادريس معه قليلاً فترك له الباب وذهب، وعاد بعد لحظات يحمل إستكاناً من الشاي.
- استاذ، شايك.
- إشربه انت!
واشار الى رفاقه، ومع فتح الباب اندفعوا للداخل بسرعة، التفت من كانوا في الغرفة جميعاً مرة واحدة ونهض دشتي غاضباً:
- كيف تدخلون هكذا من غير إستئذان، ماذا تريدون؟
مد المدير يده كاللص يحاول سحب الورقة أمامه عندما رأى أبوبكر يد خل وراء ادريس شاهراً مسدسه، لكن ادريس أسرع ووضع يده على الورقة، نظر اليها وابتسم:
- وممضية أيضاً!
وضعوا الكلبجات في يدي دشتي، وغانم يقف عاجزاً عن النطق وقد إجتاحت شفتيه حمى الموت . أما المدير فقد تراجع الى الخلف وقال:
- هذا تطاول على الحكومة، أنا المدير.
- ونحن تلك السلطة التي نصبتك مديراً ونوقفك عن العمل حتى ينتهي التحقيق.
كان الطريق من غرفة المدير وحتى باب سيارة اللاندكروزر قد تحول الى ما يشبه الاوروزدي، منظرٌ كان الناس في إنتظاره لسنوات عديدة، يوم يكون القانون سيداً على الجميع.

* * *

تجلس وحيدة في غرفتها على السرير، تتكئ على مرفقها وقد غاص في الوسادة، تمسك الصحيفة بين يديها وهي تمرر عينيها على السطور في حركة أفقية من اليمين الى اليسار، انتهت من قراءة قصيدة (الحب الذي كان) لكنها عادت وبدأت تقرأها من البداية. اخذت تنظر بدقة الى الصورة وألصقت الجريدة بصدرها، أغمضت عينيها واستلقت على ظهرها، حدجت السقف بنظراتها دون أن تزيح الجريدة من على صدرها، وكمن تذكر شيئاً، وضعت ورقة على الصحيفة وبدأت تكتب (نوروز والمحبون يهدون أزهار النرجس وأنا روحي . تطواف بالكعبة، والحجاج يقدمون الاضاحي، وأنا قلبي ... إن لم يكن هناك خلود فلأمت من أجل الحياة، الذي يحيا من اجل الحب لن يموت ابداً ... حلاوة الحلم ومرارة الاستيقاظ، سعادة الحب، نار الشوق في موقد الوجود، الحزن، الغربة ..... يا فتاي المدلل، القلب في حاجة الى حب طاهر، اللواحق والسوابق قائمة طويلة لن تنتهي، اليك قلبي المحروم جنة حب مختومة بالشمع الاحمر.)

مع انفتاح الباب، توقف القلم ورفعت رأسها:

- تفضلي أمي.

للحظات وقفت امها ساكتة عند الباب، ثم دخلت وجلست على حافة السرير.

- بنيتي، والدك غاضب، وهو محق في ذلك، لقد تقدم اليك الطبيب والمهندس، المحامي والتاجر، القريب والغريب، ع دا ذلك المقيم في الخارج، فهل يجوز ان ترفضي كل من يتقدم اليك؟

كانت شيرين تنصت لوالدتها صامتة.

- قولي شيئاً يا ابنتي.
- ماذا أقول؟
- والدك قال لي، إن كان هناك شخص ما، فليتقدم وإلا...؟
نهضت الام، لفت شيرين ذراعيها حول ركبتها ووضعت رأسها عليهما وتكورت على نفسه ا كالجنين في رحم أمه، وعندما فتحت أمها الباب إندفع الضياء الى الغرفة. رفعت رأسها وقالت:
- أماه.. متى سيأتون؟

* * *

فصل الخريف والشمس أشاحت بوجهها الناري عن المدينة وهي تتحرك في السماء نازلة صوب الافق . في النهار يشعر المرء تحت لهيبها أنه فـوق جمر من نار جهنم، وانها خلال لحظات ستتحول الى موجة حر . المراوح اليدوية التي انقرضت منذ عشرات السنين عادت مرة اخرى وبقوة لتأخذ مكان برادات الهواء. أكثر من نصف اطفال المدينة تعرضوا لأمراض مختلفة حتى ان المستشفى باتت لا تسع كل أعدادهم .. والان بعد انقلاب الطقس سيتردّى الوضع أكثر، آخ أديسون، لو تعلم انهم قد حولوا اختراعك الى سلاح يقتلون به ! وبعد أن فشلوا في سلاح الكهرباء سيلجأون الى الوقود .. وهكذا فصل يجر آخر، وكل موسم يمر

يتسع المستنقع الفاصل بيننا، وكلما إزدادت قساوتهم إشتد عنادنا . وما عدا الساعات الثلاث الفاصلة بين الظهر والعصر فان الجو لطيف بعض الشئ.
كان صبري جالساً تحت أشعة شمس ذلك الصباح في حوش دارهم مستنداً بظهره الى الجدار وهو يحرك الشاي بالملعقة، وكان الاولاد مشغولين بتناول الفطور . شعرُ رأسه الطويل ولحيته الكثة والاهمال في طريقة لف نطاقه وكوفيته تشي ب كَمٍّ الحزن واليأس في نفسه... وفي عينيه تبدو نظرةُ انكسار. قالت له زوجته:
- هل تريد شاياً آخر؟
- لا.. أريد رؤية حفيدتي، لقد اشتقت اليها.
- حسنا سأبعث في طلبها... ورفعت استكان الشاي من أمامه. وهنا طُرق الباب.
- هلبين، هيلين لتفتح إحداكما الباب.
دخل سعيد إبن عم صبري ومعه رجل آخر الى البيت، وبعد تجديد احتساء الشاي، قال سعيد:
- لقد مر شهر يا إبن العم... قطع صبري كلامه:
- صحيح أنني صرفت كل ما أملك وأنا الان مدين، لكن ئيسف ابني وإذا لم يكن هناك من أحد فسوف أذهب أنا في أثره.
- يا ابن العم...
- قل يا سعيد، خيراً ما بكما؟
- ماذا عساي أقول أو أخفي، هذا هو عمر الذي بعثناه نحن...
- ها.. يا بُني عمر هل علمتم شيئاً عنه؟

التفت اليه صبري بسرعة وسأله، لكن صمتَ عمر أخمد شدةَ لهفته الى الجواب . راح يرقب صامتاً شفتي عمر اللتين تحولتا بالنسبة اليه، الى باب المراد.

- يا عم صبري، أ عرف كم ان الحقيقة مُرّة ولكن أرجوك لا تبدد مالك وتعطه للناس فعائلتك أولى.

دفن صبري وجهه بين يديه.. وأردف عمر:

- الورقة التي عثروا عليها في جيبه كانت بمثابة (القشة التي قصمت ظهر البعير) لم يبق حياً أكثر من يوم واحد، التحقيقات في معتقلات البعثيين مصممةٌ وفق أوصاف رحلة الاسراء والمعراج، لذلك فان اللحم والعظام لا تصمد طويلاً أمامها.

عند الباب كان عمر يقول لسعيد "الكَفَرَة قضوا عليه بالتعذيب"

١٩

عصراً، كان شاهين جالساً في حوش دارهم يلاعب إبنة نسرين وعلى مقربة منهم طفلا مجيد وثلاثة أطفال آخرين يلعب ون ويدورون في حلقة وهم ممسكين بأيادي بعضهم، كان أكبرهم يغني والاخرون يرددون وراءه كلماتِ أغنيةٍ فولكلورية من ألعاب الاطفال.

كانت أمّ آزاد جالسة وأمامها كتل الصوف وهي تحشو به الوسائد والابرة مغروزة في طرف فوطتها .. نظرت الى شاهين، كان مشغولاً يلاعب حفيدته . وفي الغرفة كان آزاد جالساً وبيده كتاب وهو يدون على ورقة بيضاء ما كان ينشده الاطفال:

الخنزير الاوصْمَلّي، قضى على بيتنا، ياويلتنا على هذه الحالِ

الاوصمليون مجانين

في القرآن يقرأون

ومن الكورد ينهبون

في الطريق شاهدوا مَمْ

أطلقوا عليه رصاصة

وألقوا جثته في اليم

مَمْ كان عريساً، العروس تحت الطرحة، وفي يديها الحنة

كيف لم يخشوا من الله، قتلوا مَمْ العريس

ذبحوا مَـمْ، أخذوا ملابس العروس، فلتعمى أبصارهم

قصتنا طويلة، نسينا منها الكثير
وهي لاتخلو من عيوب وتقصير
تنحنح الحاج شاهين عندما أبصر جارهم الحاج أمين يدخل الى الدار.
- أهلاً ومرحباً بالحاج، تفضل.
- انا لا أستطيع أن أحبس نفسي مثلك.
- إيْ والله يا حاج ... قالت أمّ آزاد وهي تخيط أطراف احدى الوسائد، ثم نظرت الى شاهين وأردفت ... على الاقل كي تنسى نفسك قليلاً!
- ومن قال إنني أريد أن أنسى نفسي؟
- يا مسلم، انهض لنذهب الى الجامع ونصلي العصر ثم المغرب وبعدها نعود سوية الى البيت، لننظر ماذا ستهيئ لنا أم آزاد من طعام على العشاء؟
- على الرحبة والسعة.
مع صوت قرع على الباب، غرزت رأس الابرة في الوسادة ونهضت، عادت وهي تنادي:
- آزاد، بني هناك فتاة تسأل عنك.
خرج آزاد والكتاب في يده وإصبع سبابته بين طياته.
- حسناً أماه... والتفت الى والده ... أرجو أن لا تتأخرا بعد أداء الصلاة فتتركانا بدون عشاء.
نظر اليه والده، لكن آزاد لم يدع له مجالاً:
- أسرع يا أبي فالحاج في انتظارك.
هز شاهين رأسه علامة الايجاب وقال:

- حسناً يا بني.
عندما فتح الباب، كانت شيرين واقفة واللهفة تنضح من عينيها.
- لماذا أنت واقفة شيرين، ارجوك ادخلي.
- كلا استاذ، ارجو ان تتفضل انت معي.
- اين؟
- أوصلني الى بيتنا.
استغرب آزاد هذا الطلب.
- ألم ترافق فتاة الى بيتهم قط؟
طوى آزاد دفتي الكتاب ووضع يديه على خاصرتيه وقال ببساطة:
- لم تتح لي الفرصة ولا الوقت أبداً.
مدت شيرين يدها الى الكتاب وقالت:
- ها قد جاءت الفرصة وحان الوقت، فأرجو أن تستعجل.
- أُدخلي الى الدار حتى أغير ملابسي.
- كلا، سأنتظر هنا حتى لا تتأخر.
وخرج الحاجّان، وعندما وقعت عينا شاهين على شيرين، ابتسم لا إرادياً. كانت شيرين تقلب صفحات الكتاب، وأخذت تقرأ الورقة التي كانت بينها بصوت منخفض:
عزيزتي
يوسف مفسرُ الاحلام، لست أنا
فكل رؤياي في افق الغد
سراب
عزيزتي
يونس النادم، لست أنا

كي أنادي من جوف الحوت
وأطلب المغفرة
مكاني مظلم تحت قرص الشمس
لذلك أنا دائمَ العَدْوِ
أنا مغترب عاثر الحظ
في عنقي قلادة اللعنة
غدت نيراً غريباً
وبه أُلدغ
- ياه، ما كل هذا التشاؤم!... وأطبقت الكتاب.
في الداخل غير آزاد ملابسه بسرعة ولم يفته أن يسرح شعره بالمشط أمام المرآة .. كانت شعرات بيضاء تتلألأ على صدغيه كنجيماتِ بداية هبوط الغسق رغم أن عمره لم يتعد عامه الثلاثين... قال وهو في طريقه للخروج:
- أماه، سأخرج مع شيرين واذا تأخرت أرجو أن تتناولوا عشاءكم... وخرج.
- فلنذهب.. ألا تقولين ما الامر؟
- الدربونة ليست مكاناً مناسباً ذلك، ولكني مضطرة!
- مضطرة! لماذا؟
- الخطّابة.
- اذا لم يعجبك، إرفضيه.
- هكذا ببساطة، وما الذي يهمك!
توقف آزاد.
- فما المشكلة اذن؟

- آزاد لا تثر غضبي.
- عفواً، لكن أرجو ان تُفهِميني.
- ليلة أمس قال لي والدي، عمرك شارف على الثلاثين...
- وبماذا أجبتيه؟
- تهربت من الجواب، ماذا عساي أقول له ! صحيح ان والدي ذو عقلية متفتحة، لكنه كُردي مسلم وشرقي.
- كوردي ومسلم وشرقي وفكره متفتح، كيف يمكن أن تتواءم فيما بينها!؟ الآغا والوطنية!
على مقربة منهما كان هناك بعض الشبان يقفون عند بدية الزقاق، إلتفتوا جهة صوت آزاد.
- يجب أن تتواءم، هذه كوردستان . ألم تلاحظ كيف كانوا ينظرون الينا؟ لعنة الصحراء وجَرَبُ البعر ان، والدي يفهم الاسلام كرسالة وليس سلسلة خطب طوباوية تقتل جذوة حب الحياة والبناء والابداع في نفس الانسان.
كان آزاد يصغي وهو يدرك ان شيرين لم تقل بعدُ ما تريد البوحَ به، لذا لم يشأ مقاطعتها وقال مع نفسه "كنت أظن أن قلبي محصن بحب دلبَر، لكنه إختُرق بسهولة ودون ان أشعر بذلك".
انتهت صلاة الجماعة في الجامع وبدأ المصلون يتفرقون شيئاً فشيئاً، أما الباقون في الداخل فقد كان بعضهم يؤدون صلاة السنن وقسم آخر يرفعون أكفهم صوب السماء فيما كان عدد منهم جالسين يسبحون لله ويعدّون التسبيحات بعُـقَـدِ مفاصل أصابعهم.
التفت الحاج شاهين حوله، لم ير الحاج أمين والمفروض أن يعودا سوية لتناول العشاء في بيتهم . خرج من المصلى وأخذ يلبس

حذاءه، كان مجلسُ كلَّ يوم منعقداً في حديقة الجامع تحت أشعة شمس الاصيل الباهتة، نظر اليهم وأخذ يتطلع بدقة في الوجوه التي غَـزتها التجاعيد، أخذت الصورة تتكرر أمام عينيه والصدى يتردد في أذنيه "إنها تستحق ... فتلك الـ ..... التي تُـقتل ماذا سيكون السبب؟ عاشت يداه ذلك الذي أطلق عليها الرصاص .." الاقوال والوجوه هي هي نفسها تتكرر مرة أخرى.

تنهد بعمق وقال بصوت خفيض "قاتلكم الله، لا ترحمون أحداً ولا تدعون رحمة الله تنزل على أحد " أخذ يمشي بمساعدة عكازه بخطوات ثقيلة ومتعبة. خارج الجامع كانت ظلالُ البنايات وأعمدة الكهرباء تستطيل، كان يمشي على رصيف الشارع لصْقَ الحائط وآزاد وشيرين قادمان من الجهة المقابلة، إجتازاه دون أن يرياه ... أصبح خلف ظهريهما، كانا منشغلين بالحديث، وضعت شيرين يدها في يد آزاد وشبكا أصابعهما . إرتسمت على شفتي شاهين إبتسامة، لكن صوت المطرب محمد شيخو من راديو الدكان الذي مرّ به جمّد الدم في عروقه عندما كان يغني:

ذبل الربيع وتساقط النسرين
وعليها رعت الاكباش الهرمة
أتألم حسرة، نسرين سقطت
والدموع على الخدود انهمرت
عندما رأيتك نسرين
وعيناك السوداوان تبكيان
تلك العيون كانت تقول لي
انكَ لن تراني مرة ثانية

قلبي وروحي تضرجت بالدماء
تفتحت الجروح علي من كل حدب
من أجل الحبيبة ذات السن الذهبية
من أجل الحبيبة ذات القد الجميل
من بين الورود أنت وردة نسرين
أمنيتي أن أراك نسرين
ليس في هذه الارض
إنما بأرض أخرى
ليس بهذه الحال
إنما بحال اخرى
أمنية لن تتحقق قط
يا نسرين
كان صوت شيخو وإسم نسرين ينثال كمطر خريفي على قلب شاهين الضامئ وكبده المكتوي.
وعند نهاية الطريق كان آزاد وشيرين يمشيان ويداهما متشابكتان.

النـــهايـــة

الهوامش

١- كورداياَتي: الانتماء الى الامة الكوردية.

٢- كريف: وتعني لدى الكورد الايزديين الاخ والصاحب والصديق.

٣- من الامثال الشعبية الكوردية، يقال عندما يأتي شخص غير متوقع حضوره.

٤- مَمي قَبلان: قصة تراجيدية مأساوية تحكي جانباً من محنة الناس ايام عسكرية السلطان العثماني، تنتهي القصة بمقتل الشاب مَمي قَبلان على يدي والدته بطريق الخطأ بعد غيبة عشرين عاماً عن عائلته . غدت القصة موضوع اغنية يرقص الكورد على أنغامها في الدبكات الشعبية.

٥- دَشتان: قرية كوردية تقع على الحدود بين كوردستان العراق وكوردستان تركيا، لجأت الى ريفها أعداد كبيرة من كورد العراق إبان الهجرة المليونية في نهاية آذار عام ١٩٩١ حيث لجأ معظمهم الى منطقة (جَلي) القريبة من دَشتان.

٦- بَركيز: البزة الرجالية الكوردية ومنها أنواع كثيرة وحسب نوع القماش ولونه، غالباً ما ينسج قماشها يدوياً.

٧- جَلي: انظر الهامش رقم ٥.

٨- كَبكي جالديران: الكاتب هنا يربط بين معركتين جرّتا المآسي والويلات على الشعب الكوردي . فالـ (كَبك) يقصد به كَبكي حَمَد آغا أو قمة حمد آغا الاستراتيجية في جبال منطقة أربيل

التي دارت فيها رحى معارك طاحنة للسيطرة عليها بين قو ات الحزب الديمقراطي الكوردستاني والاتحاد الوطني الكوردستاني إبان الاقتتال الداخلي بين الاعوام ١٩٩٤ – ١٩٩٧. وجالديران هي معركة وقعت بين جيوش الامبراطوريتين العثمانية والصفوية على ارض كوردستان انتهت بهزيمة الصفويين وتدمير أجزاء واسعة من كوردستان وتقسيمها لأول مرة.

٩- دمدم: هي قلعة دمدم التاريخية، تقع غرب بحيرة اورمية بكوردستان ايران.

١٠- من الامثال الشعبية، وقصته ان الثعلب واللقلق يدعو كل منهما الآخر الى وليمة عنده ، ويحاول كل واحد ان يقدم الطعام بطريقة يستحيل على الاخر تناوله بسبب طبيعة تركيبة فمه، فيحضى المضيف بكل الطعام ويبقى الضيف جائعاً.

١١- الشيخ الخاني: هو الشاعر الكوردي الكلاسيكي الكبير احمد الخاني (١٦٥١- ١٧٠٧) يعتبر رائد الفكر القومي الكوردي، صاحب ملحمة الحب الخالد (مَمْ وزين) التي ترجمت الى العربية عدة مرات. والشاعر يصور هنا حال الامة الكوردية ال واقعة بين سندان الامبراطورية العثمانية ومطرقة الدولة الصفوية ويشبههما بالبحرين الهائجين.

١٢- من الامثال الشعبية، يقول : مات حمار أحدهم فسمن كلب جاره. ويقال في العربية مصائب قوم عند قوم فوائد.

١٣- زواج المبادلة: ما يقال له في العامية العراقية زواج (كصة بكصة) ويجري هذا النوع من الزواج بين عائلتين في نفس الوقت، حيث تزوج كل عائلة احدى بناتها للعائلة الاخرى بدون مهر،

وعادة ما يلجأ الى هذا النوع من الزواج ابناء الطبقة الفقيرة تجنباً لدفع المهور الغالية.

١٤- الاسايش: قوات الامن الكوردية.

١٥-المستشارين: الاسم الذي كانت تطلقه الحكومة العراقية على مسؤولي افواج المرتزقة الكورد.

١٦- جحوش: المصطلح الشعبي الكوردي للمرتزقة الكورد الذين كانوا يحملون سلاح الحكومة ضد ابناء جلدتهم.

١٧- رستم: أو رستمي زال، وهو بطل اسطوري يرد ذكره كثيراً في الحكايات الشعبية الكوردية.

١٨- مثل شعبي يقول: إن صديق الغراب منقاره دوماً في الخراء. يقال عندما يصاحب المرء أحد أصدقاء السوء فيكتوي بنار أفعاله.

١٩- من الامثال الشعبية الدارجة، يقال عن الشخص الذي يهمله الناس فيعمد الى تعكير مياه نبع القرية، فنبع الماء هو المكان الوحيد الذي تجتمع فيه كل نساء القرية وصباياها فينتشر أي خبر، مهما كان صغيراً أو غير ذا قيمة، في كل أرجاء القرية وبسرعة.

سيرة ذاتية للمترجم في سطور

- مواليد بغداد ١٩٥٩
- تخرج في كلية الزراعة جامعة بغداد ١٩٨٢
- بدأ في نشر كتاباته الادبية باللغ تين العربية الكوردية في الصحف والمجلات العربية والكوردية في عام ١٩٨٥ وتمحورت هذه الكتابات حول النقد القصصي والترجمة من الكوردية الى العربية وبالعكس.
- أصدر مع مجموعة من الادباء في دهوك مجلة ده نكى مه (صوتنا) في أواخر الثمانينات، صدر منها بضعة أعداد ثم توقفت لأسباب مادية.
- عمل مراسلا صحفيا لجريدة العراق وبزاف الصادرتين في بغداد في الثمانينات.
- عمل محررا في صحيفة بوتان التي كانت تصدر في دهوك بعد الانتفاضة المجيدة عام ١٩٩١.
- عمل محررا ومذيعا في قسم الاخبار والبرامج السياسية في تلفزيون كردستان في دهوك حتى العام ١٩٩٦.
- إنتقل للعمل كسكرتير للتحرير في جريدة بَيمان (أفرو حالياً) حتى العام ١٩٩٩ ثم انتقل للعمل كمراسل لفضائية كردستان حتى أواخر العام ٢٠٠٠.
- يقيم في السويد منذ أواخر عام ٢٠٠١.

أعماله المطبوعة:

- قام بنقل رواية (شجرة الرمان) للروائي الكبير يشار كمال من الاحرف اللاتينية االى الاحرف العربية المتداولة في كردستان العراق وقدم للرواية. صدرت عن دار نشر سبيريز في دهوك.
- ترجمة رواية (القرية) للكاتب محمد سليم سواري . صدرت عن دار نشر سبيريز.

- (شواف.. الليلة الاخيرة) مجموعة قصصية مترجمة . صدرت عن أتحاد الادباء الكورد في دهوك.
- ترجمة رواية (المحرقة) للكاتب بلند محمد . صدرت عن اتحاد الادباء الكورد في دهوك.

سيرة ذاتية - الكاتب

مواليد ١٩٦٣

تخرج من معهد المعلمين المركزي في دهوك ١٩٩٥

عضو نقابة صحفيي كوردستان

عضو اتحاد الادباء الكورد

سكرتير تحرير مجلة بَـيْف- الكلمة - مجلة اتحاد الادباء الكورد في - دهوك

من نتاجه الادبي المنشور:

١-عشق الشمس - مجموعة نثرية - ٢٠٠٤

٢- تباهت الالوان - قصص قصيرة – دار هافيبون، برلين - ٢٠٠٤

٣- الحب في زمن الالم - رواية، دهوك – ٢٠٠٥

٤- الموت في سرايا السلطان – قصص قصيرة، دهوك - ٢٠٠٦

٥- تطعيم الذنوب – قصص قصيرة، دهوك - ٢٠٠٧

٦- باخورة .. ترانيم أنشودة زردشتية. رواية، -٢٠٠٩ دهوك

٧- اجساد طائرة- قصص قصسرة، ٢٠١٠- دهوك